المسلمون

أمام تحديات الغزو الفكري

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٤٠-٢٠١٩

مزيدة ومنقحة

المسلمون

أمام تحديات الغزو الفكري

إبراهيم البغمة

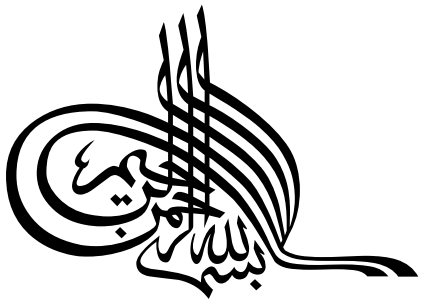
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

الحمد لله حمداً أسْتتمّ به نعمته، وأستعجلُ به رحمته، وأستبعد به عذابه ونقمته، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله الطّيبين، وصحبه المخلصين الصادقين. اللّهم صلِّ على هذا النبيّ الكريم، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إنّك لا تخلفُ الميعاد.

أمّا بعد:

فقد طُبعَ هذا الكتاب بطبعتهِ الأولى سنة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ولم يبقَ في الأسواقِ غير فترة وجيزة، فقد تقبّله الناس بقبولٍ حسن -ولله الحمد والمنة- فنفدت طبعته، وشُغلتُ -بعد ذلك- بكتابة عدد من الرسائل الصغيرة، والكتب التي تعالج مشكلات المسلمين وهمومهم. وفي ليلة من اللّيالي بينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع أحدِ الإخوة الذين يهمهم أمر المسلمين، مرّت بهِ سانحةٌ فاقترحَ عليَّ أن أقوم بإعادة طبع هذا الكتاب كما هو من غير زيادة ولا نقصان. وصادفَ هذا المُقترح هوًى في نفسي، فقد كنت أعلمُ أهميّة هذا الموضوعِ في العصرِ الحديث، لكنّي رأيت من المفيد أن أنظر في مستجدات الأحداث، وأضيف إلى الكتابِ عدداً من الموضوعات ذاتِ الصّلة بالغزو الفكريّ؛ ذلك لأن الكتاب مضى على طبعته الأولى ما يقربُ من ثلث القرن، وفي هذه المدة المديدة ظهرت في الساحتين العربية والإسلامية شبهات تريد النيل من عقيدة الإسلام وشريعتهِ وأخلاقه، وقد كان للمستشرقين وتلامذتهم وحركات التغريب الأثر الكبير في إثارتها وإشاعتها. وتلقّف تلك الشبهات شباب غُمْر من الطغام والخُرَصَاء الذين اتَّسموا بالخَطَلِ والنَّزق من المحسوبين على المسلمين.

وننظر إلى هؤلاء، فإذا هم نكرات لا يُعرفُ لهم مقام محمود في الذّودِ عن شريعة الله؛ فأرادوا أن يعرفهم النّاس ولو بآرائهم الفجّة، التي تدلّ على جهلهم المركّب، وعقولهم القاصرة، وفكرهم السّقيم؛ فافتروا على دين الله بِدَعاً وضلالاتٍ يلُفّها الشذوذ من كل جانب! وتلقّفت وسائل الإعلامِ ما يكتبهُ الأقزام؛ فصاروا يُروِّجون لتلك المفاهيم الضّالةِ المُضلّة التي شَرِبت المفتريات معتّقةً من دنان الجهل!

ولا عجبَ في ذلك؛ فهذه هي بضاعة الإعلام في هذا العصر: يتلقّف كلّ ما هو شاذّ لتُقبل جماهير الناس على قراءته، ولو كان فيها ما فيها من الزّعاف القاتل، واللّظى الذي يحاول أن يحرقَ حُصون العقيدة وقلاع الإيمان، ولكن هيهات! هذا ما يتعلّق بشيء من الشّبهاتِ الحديثة عن شريعة الإسلام.

وحين تلقي نظرةً في مكايدَ قديمةٍ نصبتْ شباكها في المجتمعات الإسلامية للنّيلِ من عقيدة الإسلام وشريعته –وقد عانت المجتمعات الإسلامية منها– نجدُها ليست بالقليلة، وبخاصة تلك المؤامرات التي قادها جحفل من المبغضين لهذا الدين في نهاية عصرِ الدولة الأمويّة والدولة العباسية، وقد فضَحَ خُبثها وحقدَها ومكرَها على هذا الدّين علماءُ أعلام كالأئمّة: ابن قتيبة الدينوري، وعبد القاهر البغدادي، وأبي حامد الغزالي، وابن حزم الأندلسي، وغيرهم.

وظنّي أن الشباب المسلم في عصرنا هذا، بحاجة ملحة ملحفة إلى معرفة ما يُراد بهم، ليبعدوهم عن الفهم الصحيح لهذا الدين!

واللهَ أسأل: أن يجعل عملي هذا وغيره من الأعمال خالصاً لوجههِ الكريم، ويتقبّله مني، والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل.

مقدّمة الطبعة الأولى

يا ربّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. والصّلاة والسّلام على رسول الله المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه ومَن دعا بدعوته إلى يومِ الدّين.

أمّا بعد:

فلقد تعرّض المسلمون في تاريخهم الطويل لتحديات كثيرة، شملت جوانب الحياة كلها، مستهدفة زعزعة عقيدة المسلم، أو توهينها على الأقل! وكثرت هذه التحدّيات كثرة هائلة على مدار التاريخ، حتى أصبحنا نرى تحديات القرن العشرين صورةً (طبق الأصل) للتحديات التي واجهها المسلمون في عصورهم الغابرة، لا تختلف عنها إلا في طريقة العرض وسعة النطاق!

على أن التحديات الغابرة لم تترك آثاراً سلبيّة في المجتمع الإسلاميّ آنذاك، إذ وقف المسلمون أمامها وقفةً صادقة، وفعل الإيمان فعله حين ملأ القلوب وسيطر على المشاعر. ولكن التحديات التي تعرّض لها المسلمون في العصور المتأخرة، تركَتْ فيهم آثاراً بعيدة المدى، عميقة الأثر، إذ واجهت المسلمين في عصرٍ خفتَتْ فيه حرارة الإيمان، وضعفت فيه قوّة العقيدة، وفقد المسلم إرادته الحرّة. وكانت هذه التحدّيات تواجه العالم الإسلاميّ على وفق مخطّط منظّم، استهدف تدمير كلِّ ما يمُتُّ إلى الإسلام بصلة، تدميراً كاملاً لا يبقي ولا يذر!

وإذا كان الغرب قد بذل جهوداً جهيدة في غزو الفكر الإسلاميّ، فإنه أراد من ذلك إيقاع العالم الإسلامي في براثن الاحتواء الغربيّ، إذ عند ذاك يتخلّى الفكرُ الإسلاميّ عن مكانته، وفي ذلك نجاح كبير للصّهيونيّة وأهدافها التي عملت –ولا تزال كذلك تعمل– من أجل البقاء في فلسطين!

إنّ الحضارة الغربية اليوم تعاني آلاماً كثيرة، وساعةُ احتضارها ليست بالبعيدة. هذه حقيقة أقرّها كثير من كتّاب الغرب وفلاسفته، الذين عرفوا كُنْهَ الحضارة الغربية من الداخل لا من الخارج فقط. ومن أجل ذلك عُقدَ في (إنجلترا) في أوائل القرن التاسع عشر مؤتمر خطير، قرّر المؤتمرون فيه هذه الحقيقة –حقيقة انهيار الحضارة الغربية– لكنّهم تواصَوا أن يُوجّهوا سهامهم بعنفٍ وقوّة أشدّ من ذي قبل إلى هذا البديل الذي يُحتمل أن يتبوّأ مكان الحضارة الغربية، ويحل محلّها. هذا البديل هو الأمة الإسلاميّة: بعقيدتها وشريعتها وقيمها وثقافتها وحضارتها. وقد عملوا منذ يومئذٍ إلى يومِ الناس هذا على أن يضاعفوا من جهودهم ليُفتّتوا الأمة الإسلامية عن طريق الغزوِ الفكريّ ليتأخّر زمنُ انهيارِ حضارتهم!

وفي هذا الكتاب عرْضٌ موجز لما قام به أعداء الإسلام من مؤامرات، استهدفت الإتيانَ على حصون العقيدة وقلاع الإيمان من القواعد: وذلك بإذابة (الشخصيّة الإسلاميّة) واحتواء (الفكر الإسلاميّ)!

والذي دعاني إلى كتابة هذا البحث ما لمستهُ من حاجة شبابنا الماسّة إليه، إذ تفتّحَتْ أعينهم على حضارةٍ ماديّة برّاقةٍ خلّابة، أوحت إلى المسلم أنّ طريق الحضارة والسعادة لا يكون إلّا بانتهاج طريق الغرب في كلّ شيء، حتى في الثّورة على الدّين! وتلقّى شبابُنا الأغرار هذه الدّعوة بالقبول والتّسليم، لأنه ما كان يملك رصيداً من الثقافة في دينه، يريه أبعاد تلك الدسيسة، ويمكنه من كشف المخططات المنظّمة الحاقدة –الصهيونيّة والصّليبيّة والشيوعيّة– التي نُسجت خيوطها في اللّيالي اللّيلاء، تبغي تجريدنا من أهمّ مقوّماتنا ومصدر القوّة فينا –العقيدة الإسلاميّة– التي بها ظهرت أمتنا إلى الوجود، واستحقّت أن تكون

خير أمةٍ أخرجت للنّاس، وبها أنقذت الدّنيا المعذّبة، وهدَت الإنسانية الحائرة إلى طريق النور والسعادة.

واللهَ أسأل أن يجعلَ عملي خالصاً لوجههِ الكريم، وينفع به كلّ من يقرؤهُ. وأملي أن لا ينسانيَ القارئ الكريم من دعواتهِ لي ولوالديّ ولأساتذتي وللمسلمين، وأن يُفرّج عن المسلمين ما هُم فيهِ من تدابرٍ وتناحرٍ، وتمزّق وتشتّت. والله الموفق!

إبراهيم النعمة

الموصل

ماذا عن الغزو الفكري

ماذا عن الغزوِ الفكري؟

أصبحت قضية الغزو الفكري اليوم من أشدّ القضايا خطراً. وتبدو ظواهرُ هذا الغزو المُدمّر في قلوب كثير من (مثقّفينا) وعقولهم في هذا العصر واضحة بيّنة. والسّلاحُ الذي يستعمله الغزو الفكريّ مدمّر قتّال، يؤثّر في الأممِ والمجتمعات أكثر ممّا يؤثر المدفع والصاروخ والطائرة. وقد ينزل إلى الميدانِ ويعظم خطره، حين تُخفق وسائل الحديد والنار في تحقيق الهدف، والوصول إلى الغاية. والخطرُ الذي يَجتَجِنُهُ هذا الغزو أكثر بكثيرٍ من قتل الأفراد، بل من قتل جيلٍ بأسره، إذ يتعدّى ذلك إلى قتل أجيالٍ متعاقبة، والسّلاح الذي يستعملهُ هذا الغزو هو سلاح الحيلة والشبهات وتحريف الكَلِم والخديعة في العرْض. وقد استغلّ أعداء الإسلامِ كلَّ شيءٍ لذلك، حتى المنظمات الخيريّة جعلوا منها منبراً يغزون منه عقول المسلمين وينالون من دينهم، حتى منظمة (اليونيسكو) التابعة للأمم المتحدة استغلّها أعداء الإسلام في محاربة الإسلام، فافترت على ديننا حين ردّدت مقولات المبشّرين والمستشرقين فيه، مع أن الدول العربية والإسلامية تقوم بإمدادها بمساعداتٍ كبيرة كل عام.

إنَّ هذه المنظمة (اليونيسكو) تُشرف على موسوعة تعرف باسم (تاريخ الجنس البشري وتقدّمهِ الثقافي والعلمي)، وفي الجزء الثالث من هذه الموسوعة (الحضارات الكبرى في العصر الوسيط) الذي تُرجم عن الفرنسيّة إلى الإنجليزيّة، نجد في الفصلِ العاشر حديثاً مُسْهباً عن العرب، قد مُلئ بالتشويه والمسخ لتاريخ الإسلام، والكذب على رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- وخلفائه!

والذي مهّد للثقافات الأجنبيّة التي لا تمُتّ إلى أمتنا بنسبٍ من قريبٍ أو

بعيد، ولا تتفق مع عقيدتنا في قليلٍ أو كثير أن تتغلغلَ في مجتمعاتنا كلها: هو ذلك الجمود الحضاريّ الذي كانت عليه أمتنا في عصورها المتأخرة، إذْ مات فيها التوهج الفكريّ والابتكار الحضاريّ!

وقد وضعَ أعداء الإسلام لغزوهم الفكريّ أهدافًا لا تتحقق إلا بعد مدة ليست بالقصيرة من الزمن، ليتمّ إبعاد المسلم عن دينه بأسلوبٍ هادئ، لا إثارة فيهِ ولا استفزاز، فتتمّ المؤامرة الخطيرة التي قلّما يشعر بخطرها وأبعادها في أوّل الأمر أحد. وقد حرص هؤلاء على أن يكون التغيير، بل الهدم الذي يريدونه على أيدي أبناء جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، لأن هؤلاء أكثر تأثيراً من غيرهم، فيعملون أوّلاً في هدمِ العقيدة الإسلاميّة، ثمّ في إفسادِ الأخلاق والعاداتِ الإسلاميّة!

من أهداف الغزو الفكري

ونستطيع أن نقرّر أنّ من أهداف الغزو الفكري مسخَ شخصية الأمة المسلمة، وقبر منابع الأصالة والابتكار والإبداع فيها، وتحريف مقوّماتِ أمتنا الحضاريّة، وإثارة العجز في نفوس المسلمين. وبهذا يتوقف النمو الحضاريّ، إذ يشعر المسلم بالتخلف وعدم قدرته على مسايرة حضارات العالم!

ومن أهدافه: نقل المُسلم من عقيدته وشريعته وقيمه وفكره إلى عقيدة الغرب وقانونه وفكرهِ وثقافته ونمط عيشه، لينقطع المسلم عن قوته المعنويّة التي تمدّه بأسباب القوّة، وتبعثُ فيه الشّجاعة والبسالة، لتصيرَ الأمة الإسلامية ضعيفةً عاجزة عن المقاومة والدفاع عن كيانها ووجودها.

ويتجلَّى شيء من ذلك: بما ذَكرهُ (إيوجين روستو) رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجيّة الأمريكيّة، ومساعد وزير الخارجية الأمريكيّة، ومستشار

الرئيس الأسبق (جونسون) لشؤون الشرق الأوسط إلى سنة ١٩٦٧م، حيث يقول:

((إنَّ الظروف التاريخية تؤكّد أنّ أمريكا إنما هي جزء مُكمِّل للعالم الغربيّ، فلسفته، وعقيدته، ونظامه. وذلك يجعلها تقفُ معاديةً للشرقِ الإسلاميّ بفلسفتهِ وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي. ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصفّ المعادي للإسلام، وإلى جانبٍ العالم الغربي والدولة الصهيونيّة، لأنها إن فعلت عكس ذلك، فإنّها تتنكّر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها))[1].

ومن أجل وصول الغرب إلى هدفهِ في محاربة الإسلام، أوحَوْا إلى شبابنا و(مثقّفينا) أن ينظروا إلى الإسلام نظرتهم إلى الكنائس النصرانيّة سواء بسواء! ولا يخفى على كلِّ منصفٍ الفرقُ الكبيرُ والبونُ الشاسع بين الإسلام ومفهوم الفكرِ الغربيّ للنصرانيّة، والظروف التي أحاطت بكلتا الديانتين. وهذه النظرة الخاطئة، بل الموغلة في الخطأ إلى الأذقان، كانت لدى قسمٍ من شبابنا الأغرار كأنّها حقيقة مُسلّمة، إذ درسَ في دول الغرب أو الشرق، فعملَ على التمرّد على الإسلام، وقام بنشرِ الإلحاد، واتّجهَ اتّجاهاً يتنكّر فيه للإسلامِ ويتجاهله، بل ويحاربه بلا هوادة، ورمى الشريعة الإسلاميّة بالقصور والتعصّب والجمود والعجز عن حل مشكلات الناس وحكم المجتمعات!

صحيح أنّ الأمة الإسلامية حصلت على فوائد ماديّة، حين أرسلت جموعاً

---

(١) انظر رسالة: (علماء الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله). للأستاذ جلال العالم، وهو نفسه: الأستاذ الشهيد عبد الودود يوسف رحمه الله تعالى. ص٢٥.

من شبابها إلى الدولِ الغربيّة، ليتعلّموا الطبّ والهندسة والكيمياء والفيزياء، وأنواع العلوم الماديّة. لكن الخسارة التي لحقتنا كانت أكثر من الفوائد، حين يرجع هؤلاء وقد تشبّعوا بالفكرِ الغربيّ والرّوحِ الغربيّة، وصاروا من أقوى الوسائلِ وأشدّها خطراً في تحويلِ وجهة العالم الإسلاميّ إلى الوجهة الغربيّة في كلّ شيء. وهكذا تصدّعت حصون أمّتنا من الداخل، وتفكّكت روابطها، فخسرت خسارةً كبيرة!

ومما لا ريب فيه أنّ الاستعمار بأشكاله وأنواعه كلّها، ما دخلَ بلداً من بلاد المسلمين إلّا أعلنها حرباً سافرة في كثير من الأحيان، وخفيةً في أحيان أخرى على نظام ربّ العالمين، مُتّبعاً أنواع الخديعةِ -كلّها- في ذلك، عاملاً على إحلال القوانين الغربية محل شريعة الإسلام. وقد تمكّن المستعمرون من ذلك، لأن عملية الغزو الفكريّ الذي قام بهِ قبل احتلال البلاد قد نجح فيه نجاحاً كبيراً، ووُجدَ من يساعدهُ في عمليته الخبيثة تلك!

فالهند -مثلاً- قبل أن يحتلّها الإنجليز كانت قوانينها مستمدّة من شريعة الإسلام. وظلّ العمل بها قائماً مدّة طويلة من الزمن، بل إنّ يدَ السارقِ كانت تُقطع فيها حتى عام ١٧٩١م، لكنّ الإنجليز ظلّوا يعملون في إلغاءِ أحكامٍ من الشريعة الإسلاميّة، حتى ما أبقوا منها إلا قضايا الزّواجِ والطّلاقِ وقليلاً غيرهما!

ومثلُ ذلك ما حصلَ في السودان التي ظلّت تحكم بالشريعة الإسلاميّة منذ الفتحِ الإسلاميّ حتى القرنِ التاسع عشر، ولمّا احتلّها الإنجليز وضعوا لها قوانين من صُنعِ أنفسهم بدلاً من (الشريعة الإسلاميّة) كقانون العقوبات رقم ١١ لسنة ١٨٩٩م، وقد أُخذَ أساساً من قانون العقوبات الذي وضعه الإنجليز

للهند سنة ١٨٦٠م[1].

لقد كان الإسلام -وما زال كذلك- يقوم بدورٍ كبير في محاربة المستعمرين في كلّ مكان. ولا يخشى هؤلاء من شيء خشيتهم من يقظة (العملاق الإسلاميّ)، لذلك عملوا على إسكات أيّ صوتٍ إسلاميّ ينبعث من أيّ مكان كان في أقطارِ الدّنيا كلّها!

ونستطيع أن نُدرك طرفاً مما ذكرت: بما حدثَ بين (كرزون) وزير بريطانيا، والمندوب التركي في المفاوضات (عصمت أنونو) في مؤتمرِ (لوزان) المنعقد في ٢٠/ ١١/ ١٩٢٢م، فقد قال (كرزون) لـ (عصمت) بكلِّ صراحة: ((إنّنا لا نستطيع أن ندعَكم مُستقلّين، لأنّكم تُكوّنون -حينئذٍ- نواةً يجتمعُ حولها المسلمون مرّة أخرى، فتعود المسألة الشرقيّة التي عانينا منها طويلاً))[2].

وكان (عصمت) يعود للبحث والمشاورة إلى (أنقرة) التي اتّخذها (مصطفى كمال) مركزاً لحكومته، ثمّ يرجع إلى (لندن) لاستئنافِ المفاوضات، وكانت (تركيا) حينئذٍ منهوكة القوى من الحروب الطويلة: فرأى (مصطفى كمال) أن يخضع للضغط، ويتعهّدَ للإنجليز وحلفائهم بكلِّ ما يطمئنهُم إلى أنّ استقلال تركيا لن يكون خطراً عليهم، ولن يُسبّبَ لهم في المستقبل ما يقضّ مضاجعهم، وعلى ذاك أملى الإنجليز شروطهم المعروفة بشروط (كرزون) الأربعة، وهي:

١- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

٢- أن تلغي الخلافة.

---

(١) الغزو الفكري للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد. ص١١٤. الناشر: دار الأنصار - القاهرة.

(٢) الغزو الفكري. ص١١٠.

٣- أن تتعهّد بإخماد كلِّ حركةٍ يقوم بها أنصار الخلافة.

٤- أن تختار تركيا لنفسها دستوراً مدنيّاً بدلاً من الدستور العثمانيّ المستمدّ من أحكام الشريعة الإسلاميّة، والقائم على قواعدها[١].

وقد نفّذ (مصطفى كمال أتاتورك) شروط (كرزون)، بل تحمّس إلى تنفيذها أكثر من تحمّس الإنجليز أنفسهم، وقد انْسحبت جيوش الحلفاء من تركيا -بعد ذلك- لكنّ هذا الانسحاب لاقى معارضةً شديدة من قسم من النوّاب الإنجليز. ولما وقف (كرزون) في مجلس العموم البريطاني، يتحدّث عن هذا الاتفاق مع تركيا، انهالت عليه الاحتجاجات قائلين له:

((كيف اعترفَتْ إنجلترا باستقلال تركيا التي يمكن أن تجمعَ حولها الدّول الإسلاميّة مرّة أخرى وتهجم على الغرب؟! فأجاب (كرزون): لقد قضينا على تركيا التي لن تقوم لها قائمة بعد هذا اليوم، لأننا قضينا على قوّتها المتمثلة في أمرين: الإسلام والخلافة. فصفّق النوّاب الإنجليز كلّهم وسكنت المعارضة))[٢].

ومما يبعث على الأسى -حقاً- أن نجدَ من حكامِ المسلمين: كالخديوي إسماعيل الذي باع أوطانه للمستعمرين حينَ استعان بملوك أوروبا الذين أيّدوه في انفصالِ (مصر) عن الدولة العثمانية شريطة ((أن يُبدّلَ أحكام القرآن فيما يتّصل بالحياةِ السياسيّة والاجتماعيّة، ويفصلَ السياسة عن الدّين، ويُطلقَ الحريّة للنّساءِ بحيثُ يسرنَ في إثر المرأة الغربيّة، وينقلَ إلى مصرَ معالمَ المدنيّة

---

(١) الغزو الفكري. ص١١١.

(٢) علماء الغرب يقولون: دمّروا الإسلام. ص٤٩.

الأوروبيّة))[1].

وقد حدثَ ذلك، فحلّ القانون الفرنسيّ في محل الشريعة الإسلاميّة. وبعدَ سبعِ سنوات من إحلال القانون الفرنسيّ محلَّ شريعة الإسلام احتلَّ الإنجليز (مصرَ) سنة ١٨٨٢م، لكن إنجلترا لم تغيّر من القانون الفرنسيّ الذي كان يُطبَّق في مصر شيئاً، بل أبقته كما كان. وهذا -بلا ريب- كسب كبير لفرنسا، لكن إنجلترا رضيت به، لأنّ هدفَ كلٍّ من البلدين واحد: القضاءُ على شريعة الإسلام!

خطة جديدة

لقد شنّت أوروبا ثمانيَ حملاتٍ صليبيّة على الشّرقِ الإسلاميّ، لكنّها باءت بالإخفاق والهزيمة، فالقدّيس (لويس التاسع) قائدُ الحملة الصليبيّة الثامنة وملك فرنسا، وقعَ أسيراً في مدينة (المنصورة) في مصر، ثمّ خُلِّص من الأسرِ بفدية. ولمّا عاد إلى (فرنسا) أيقنَ أن قوّة الحديد والنار لا تجدي نفعاً مع المسلمين، الذين يملكون عقيدةً راسخةً تدفعهم إلى الجهادِ، وتحضّهم على التضحية بالنّفسِ وبكلِّ غالٍ. إذن لا بُدّ من تغيير المنهج والسّبيل، فكانت توصياته أن يهتم أتباعه بتغيير فكرِ المسلمين، والتشكيكِ في عقيدتهم وشريعتهم، وذلك بعد دراستهم للإسلام لهذا الغرض، وهكذا تحوّلت المعركة من ميدان الحديد والنار إلى ميدان الفكر.

إنَّ هذهِ الوثيقة الخطيرة ظلّت مخفيّةً عن أنظار المسلمين، بل العالم مدّة طويلة، ولم يُكشف النقابُ عنها إلا في وقتٍ متأخر جداً قبل سنين قليلة، وقد

---

(١) الغزو الفكري. ص٥٠.

أشارت إليها مراجعُ في كتبِ التاريخ الفرنسيّ، كما ذكرها مؤرخه -أيضاً- (جونفيل)! وقد حُوّلت المعركة بهذه التوجيهات من الغزو العسكريّ إلى الغزوِ الفكري. فعلى شبابنا أن يتفهّم ويُدركَ ما أراد بهم أعداؤهم، إذ نُفّذت هذه الخطّة تنفيذاً دقيقاً، ونجحت نجاحاً واضحاً، نَلمسُ آثارهُ في مجتمعات المسلمين اليوم!

مجالات الغزو الفكري

كان الغزو الفكري الذي وُجّه إلى العالم الإسلامي كلِّه مُنظّماً التنظيم كلَّه، فعمل على الدخول في مرافق الحياة كلها، والهيمنة عليها، واستغلالها لصالحه، فاستخدمَ (السينما) و(المسرح) و(التمثيليّة) و(القصّة) و(الإذاعة) و(التلفزة) و(الكتب) و(المجلّات) فيما يُحقّق غرضهم. لقد حقّق ما يصبو إليه وزيادة، فأنشأ جيلاً يُحبُّ الغرب والحياة الغربيّة، بل يتفانى في سبيلها، ولو حملت أوروبا -كلّها- السّلاح أكثر من ألف سنة، وجاءت بخيلها ورجلها، وقضِّها وقضيضها إلى العالمِ الإسلاميّ: تغزو وتُدمّر، لما حقّقت من النّجاح ما حقَّقتهُ في غزوها الفكريّ الذي أوهنَ الأمة الإسلاميّة، وتركها تتلوّى ألماً، وترْتَمِضُ أسى!

التربية والتعليم

ومن أقوى الوسائل التي تَمكّنَ بها (الغزوُ الفكريّ) من الوصولِ إلى هدفه: التربيةُ والتعليم والثقافة الأجنبيّة، إذ بوساطة ذلك تمَّ الاتصال بالمسلمين. وقد دخل الغزو الفكريّ إلى العالم الإسلاميّ من باب يُخيَّلُ إلى السّطحيّين من النّاسِ أنه الباب الطبيعيّ، إذ حملَ اسم العلمِ والمعرفة والتمدّن، ومن يُحاربُ ذلك إلّا الجاهل الأحمق؟ يقول القسّ زويمر: ((المدارسُ أحسنُ ما يُعوِّل عليهِ المبشرون

في التحكّك بالمسلمين))[1].

لقد أقبل المسلمون على هذه المدارس بكثرة كاثرة، يزدَرِدونَ مناهجها، ويلتهمون كل ما احْتجَنَتهُ من عقيدةٍ وفِكر، لا يُميّزون صحيحها من فاسدها، ونفعها من ضرها. وقد أوحيَ إلى قسمٍ من المسلمين أن يعتقدوا أنّ التعليم في هذه المدارسِ خير دواءٍ لمعالجةِ الدّاءِ الذي ألمَّ بالعالم الإسلاميّ ولم يدُر بخلدِ كثيرٍ منهم ما تنتجه هذه المناهج المبنيّة على أسسٍ تختلف وتتباين عن أسسِ الإسلامِ الصّحيحة: في العقيدة والشريعة والنّظرة إلى الكونِ والحياة والإنسانِ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾[2].

على أنّ هذه المدارس كانت تساندها جمعيّات كثيرة: تمدّها بالمالِ وبكلِّ ما تحتاجه... ونستطيع أن ندركَ أهميّة هذه المدارس في أعمالها التخريبيّة باهتمام المستعمرين بها، إذ إنهم ما دخلوا بلداً إلّا كان أوّل ما فعلوه أن فتحوا المدارس، وقد قال القائد الفرنسيّ (بيير كيللر) عن المعاهد الفرنسيّة في لبنان: ((فالتربية الوطنيّة كانت بكاملها تقريباً في أيدينا. وفي بداية حرب ١٩١٤-١٩١٨م، كان أكثر من اثنينِ وخمسين ألف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا، وكان بين هؤلاء فتيان وفتيات ينتمون إلى عائلاتٍ إسلاميّة عريقة))[3].

وقد أدّت هذه المدارس دوراً عَجزَت عن أدائه أجهزة التبشير والاستشراق كلّها. ويكفينا أن نعلم أن مؤتمر (أدنبرج) التبشيري الذي عقد عام ١٩١٠م

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي. ص٤٨. الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ.

(٢) الأعراف ٥٨.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ٢/ ٢٧٢. الطبعة الثانية.

وحضره ١٢٠٠ من مندوبيه، كان مما قرّره ما يأتي:

((اتّفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانيّة على أنّ معاهد التعليم الثانويّة التي أسّسها الأوروبيّون كان لها تأثيرٌ على حلِّ المسألة الشرقيّة، يرجح على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوروبا كلُّها))[١].

ويقول المُبشّر (تكلي): ((إنّ الكتبَ المدرسيّة الغربيّة تجعل الاعتقاد بكتاب شرقيّ مُقدّس أمراً صعباً جداً))[٢].

ويقول المستشرق (هاملتون جب): ((لقد استطاعَ نشاطنا التعليميّ والثقافيّ من طريق المدرسة العصريّة والصّحافة أن يترك في المسلمين –ولو من غير وعي منهم– أثراً يجعلهم في مظهرهم العام (لا دينيّين) إلى حدٍ بعيد، ولا ريبَ أنّ ذلك هو اللّبُّ المثمر في كلِّ ما تركت محاولات الغرب لحملِ العالم الإسلاميّ على حضارته من آثار))[٣].

ولقد أدرك قسم من المسلمين الخطر الرهيب الذي يحتجنه التعليم الغربيّ –فيما بعد– فعملوا على أن يحتفظوا بتراثهم الإسلاميّ، وذلك ببناء مدارس وجامعات تُدرّس فيها العلوم الإسلاميّة، من غيرِ أن يكون للفكرِ الدخيل تأثيرٌ فيها. لكنّ المسلمين لم يستطيعوا التوصل إلى ما يريدون، ذلك لأنّ الإرساليّات التبشيريّة كانت تتمتّع بنفوذٍ قويّ، وكانت جامعاتها التبشيرية تساندها قوى

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي. ص٥٧.

(٢) التبشير والاستعمار للأستاذين: مصطفى الخالدي وعمر فروخ. ص٨٨. الطبعة الثانية ١٩٥٧م.

(٣) من التبعية إلى الأصالة، للأستاذ: أنور الجندي. ص١٣٢. طبعة: دار الاعتصام – القاهرة – ١٩٧٧م.

مادية كبرى، فوق النفوذ الذي كان لدول الجامعات التبشيرية.

وهكذا نشأ في المجتمع الإسلامي تياران متعارضان في الثقافة والتعليم: التيار الإسلامي القديم، وتيار الجامعات الأجنبية الجديد.

أما مدارس الدولة، فكانت مناهجها قريبةً جداً من مناهج الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية.

وقد أدت هذه (الازدواجية) في الدراسة بين ثقافة الغرب والثقافة الإسلامية إلى تمزيق وحدة العالم الإسلاميّ. وأدى ذلك إلى تكوين صراعٍ فكري بين المسلمين أنفسهم، صار معه التقاء المسلمين على فكرٍ واحدٍ وثقافةٍ واحدةٍ أمراً يصعُب تحقيقه!

وقد فعل (المستعمرون) هذا في الديار الإسلامية، لأنهم أرادوا أن يندمجَ المسلمون مع المستعمرين اندماجاً تاماً كاملاً، فيتمكّن المستعمرون؛ من التأثير في فكر المسلمين، فيجردوهم من عقيدتهم وشريعتهم شيئاً فشيئاً، وذلك بنشرِ لغة المستعمرِ، وتنشئة شباب الأمة على الولاء للمستعمرين، فيستسلمون لأفكارهم وطرائق عيشهم في الحياةِ بعد ذلك!

ونستطيع أن نجد في كلّ دولةٍ إسلامية تمكن المستعمرون من السيطرة عليها، عملاً دؤوباً مستمراً في نزع الإسلام من نفوس المسلمين، وتنشئتهم تنشئةً (لا دينيّة)، حتى ينشأ المسلمُ في مجتمعٍ لا يعرف عن دينه شيئاً! ففي (مصر) كان تخطيط (دنلوب) مستشار وزارة المعارف دقيقاً: فقد تمكّن من أن يستأصل الروح الإسلامية وروح تاريخ العرب، والأدب العربي من مناهج التعليم، في الوقت الذي كان اهتمامه كبيراً في هذه المناهج بـ(الحضارة الفرعونية)!

وفي الهند كان الإنجليز يُركّزون على المناهج التي وضعوها في دراسة الحضارات الوثنية، وكذلك كان الأمر بالنسبة لـ (إيران) و(أفغانستان) و(تركيا).

وفوق ذلك، فقد أولت المدارس الأجنبيّة اهتماماً بالغاً في نشر تاريخ نابليون، وفرنسا، وإنجلترا، واللّغتين: الفرنسيّة والإنجليزيّة، في الوقتِ الذي أهملت إهمالاً متعمّداً تاريخ المسلمين واللغة العربية. وفوق ذلك، ما دسّت في هذه المناهج من هجوم سافرٍ ومُبطّن على الإسلام وتاريخه ولغته!

أما المدارس التي قامت بفتحها الإرساليات التبشيرية، فقد كان خطرها جسيماً على أبناء المسلمين، ذلك لأنّ هذه المدارس كانت مستقلةً غير خاضعة لرقابة الدولة: فكانت مناهجها مليئةً -أيضاً- بالشبهات حول الإسلام وتاريخ المسلمين. إن ذلك جعل المتخرّجين يعرفون عن أديان المستعمرين كلّ شيء، ولا يعرفون عن دينهم أي شيء كان، اللهم إلّا الشبهات التافهة، والافتراءات الساقطة، والأضاليل الكاذبة!

إنّ المدارس التي قام بفتحها المستعمرون، جعلت المسلمين أمامَ شرّينِ أحلاهما مرّ: فإما أن يتركوا الدراسة فيها، فيؤول الحكمُ إلى أيدي غيرهم، فيفقدوا نفوذهم، وإمّا أن يتقبّلوا الدراسة فيها، فيذوبوا في بوتقة المستعمرين، ويخسروا أنفسهم وقدرتهم على مقاومة المستعمرين.

ولقد اختار كثير من المسلمين الأمر الأوَّل، فلم يلتحقوا بمدارس المستعمرين، فكانت النتيجة: أن تقدّم غيرهم في تسلّم وظائف الدّولة المهمة، كما حصلَ في الهند، لكن الهنود المسلمين لم يتركوا الأمر هكذا، بل أقدموا على إنشاء مدارس تخدم الفكر الإسلامي. وتقدَّمَ المسلمون يبذلون أموالهم بسخاء لهذه

الغاية. ولم تكن الهند -وحدها- قد فعلت هذا، بل قامت مصر والجزائر وإندونيسيا بمثل ما قامت به الهند.

وإذا كانت مدارس (الإرساليّات التبشيريّة) و(الحركات الاستعماريّة) قد تخلّص منها المسلمون في كثير من أقطارهم، فإن آثار تلك المدارس لا تزال موجودة إلى يوم الناس هذا في قسم من الأقطار الإسلامية، على الرّغم من تبديل تلك الأقطار للمناهج التي وضعها المستعمرون، وفتحهم المدارس الوطنية، إذ لم تستطع أن تتخلص المدارس الوطنية من عقابيل المناهج الغربية، فقد حملت الخطّ العام لفكر المستعمر ومحاربة الإسلام.

ولقد بذل المصلحون جهودهم -كلها- في إدخال تدريس مادة (التربية الإسلامية) في المدارس والمعاهد. ولقد تحقق ذلك، لكن المنهاج الذي وُضع للتدريس لا يربط بين الإسلام والمجتمع والفكر؛ فقد صيغت مناهج دروس (التربية الإسلامية) على وفق منهاج الفكر الغربي، فكان الطلاب يدرسون (مادة الدين) على أنه منهاج روحي فقط، ليست له أي صلة أو علاقة بواقعِ الناس، فكانت هذه المناهج تذكر نُتَفًا من القضايا الخلقيّة، ولم تعطِ أيّ اهتمام كان للقضايا الإسلاميّة الأخرى: اجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة وتشريعية. فقد نظروا إلى الإسلام نظرتهم إلى النصرانيّة سواء بسواء!

أما رسول اللهﷺ فكانت سيرته تُدرّس كما تدرّس سيرة القادة الأوروبيّين سواء بسواء، من غير أن يهتموا بقضية نبوّته -صلوات الله وسلامه عليه- فكانت سيرته تدرّس كما تدرّس سيرة (نابليون) و(بسمارك) وسواهما من قادة الغرب، على أنّه إنسان عبقريّ، استطاع أن يجمع الأمّة العربية ويُوحّد بينها!

إنّ درس الدين في أكثر البلاد الإسلامية -إن لم نقل كلّها- يُعتبر دون

الإنجليزيّة والرّياضيات والكيمياء والفيزياء. إنه لا يزال عند الكثيرين في مستوى الرسم والرياضة!

وقد صار درس الدين يُعطى –في الغالب– لمن يريد أن يرتاح من المدرسين لكسله، أو لتهرّبه من الواجب، أو لكبر سنّه. ويُعطى لمن يكمل نصابه من الحصص، بغضّ النظر عن صلاحيّته، بينما لا يعطى درس الرياضيات –مثلاً– لغير المختص به. وكذلك بقية العلوم لا تُعطى إلّا للمختصّين بها. وربما يأخذكَ العجب –أخي القارئ– إذا قلت: إن درس الدين كان يُعطى لمن لا يؤمن بالدين أصلاً، أو لمن لا يؤدي الفرائض، وقد يُعرف عنه ارتكاب بعض الكبائر!

كما أن درس الدين يُعطى لمعاون مدير المدرسة، لأن عمله في الإدارة قد يقتضيه أن يتغيّب عن الدرس، ولا حرج في التغيّب عن الدرس إن كان درس دين، بخلاف ما لو كان درس رياضيات أو لغة إنجليزية أو كيمياء أو فيزياء أو غير ذلك، فتلك لا يجوز التغيب عنها، ولا يهم –بعد ذلك– مقدار ما يُنهي من منهج الدين قلّ أو كثر!

وقد أصبحت حصّة (مادة الدين) مستباحة لكل مدرس مادة لم يُنهِ منهجه، أو تأخّرَ مع تلاميذه، فإنه يسرع فيحوّل درس الدين إلى المادة التي يُدرّسها!

التعليم الجامعي

بعد أن سيطر المستعمرون على بلاد المسلمين اهتمّوا اهتماماً بالغاً بالجامعات الإسلاميّة: بمناهجها ونظامها، وصاغوها صياغة خاصّة، تجعل المتخرّج فيها لا صلة له بالإسلام، ويكون في الوقت نفسه أميّاً في عقيدته وشريعته. يقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر -رحمه الله-:

((إنّ الأمر قد وصل بالاستعمار أن صاغ خريجي كليات الحقوق بحيث لا يفهمون بعد (اللّيسانس) كتاباً عربيّاً في المواد التشريعيّة. وليس الأمر بغريب، إنّ جدولَ التدريس في كليّات الحقوق يُخصّص عشرين محاضرة في الأسبوع للقوانين الأوروبيّة، ومحاضرتين فقط للشريعة الإسلاميّة))[1].

ولم يكتف المستعمرون بذلك، بل قاموا بفتح جامعات ومعاهد لتقوم بتوجيه أبناء المسلمين توجيهاً مباشراً: كالجامعات الفرنسية والأمريكية التي كانت تعمل عملها في القاهرة وبيروت واسطنبول وغيرها. وكانت هذه الجامعات تخرّج شباباً مُعجباً بالغرب وحضارته. وتمكنت هذه الجامعات الغربية من منافسة الجامعات الإسلامية، فانتزعت من الجامعات الإسلاميّة شبابها، خاصّةً بعد أن جعلت الوظائف المهمة منحصرة في خريجي جامعات الغرب، وأغدقت عليهم المرتبات الوفيرة، في الوقت الذي ضيّقت الخناق من الناحية الماديّة على خريجي الجامعات الإسلامية. ووصل الأمر بخريجي الجامعات الإسلامية أن صارت الأمثالُ تضربُ بهم: في فقرهم المُدقع، وعوَزهم البائس، لقلة رواتبهم.

---

(١) الغزو الفكر ص١٢٧.

وقد صوّر أحد الشعراء الحياة الذليلة البائسة التي كان يعيشها علماء المسلمين آنذاك، فقال:

أحبابنـــا نُوَبُ الزّمـــانِ كثيرةٌ وأخصهـــنَّ إمارة السّفهـــاءِ
فمتى يفيقُ الدّهـــرُ من سَكراتهِ وأرى اليهـودَ بذلّةِ العلماءِ؟!

وقال طه الشواف:

بلِّغْ أمير المؤمنين الذي قد عمّنا بالفضلِ واللّطفِ
دِرهَمــهُ أضحى ودينارُهُ في سوق بغدادَ لـدى الصَرْفِ
أذلَّ من طالب علـــمٍ أتى لحـاجةٍ دائـــرةَ الـــوقفِ

وقد استمدّت كثير من الجامعات العصرية مناهجها وبرامجها من المناهج والبرامج الغربية، متجاهلة الدور العظيم الذي أسداه المسلمون إلى الإنسانية في مجالات الروح والقيم والآداب والعلوم، فكانت علوم الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء وغيرها تُدرّس في هذه الجامعات على أنها نتاج غربي ليس إلّا، وأنَّ المسلمين لم يكن لهم أي دور يستحق الذكر في هذه العلوم! وكانت الفلسفات والنظريات الغربية والمذاهب السياسية والاجتماعية والتربوية الغربية تُدرّس في جامعاتنا على أنها حقائق مُسلّمة، لا على أنها نظريات قابلة للصواب والخطأ، ولم يكن للفكر الإسلامي ونظرياته في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية أي نصيب يستحق الذكر!

وقد هدفت هذه المناهج إلى أن تقف وَقفةً مضادّةً لما كان يقوم به (الأزهر) وجامعتا (الزيتونة) و(القرويّين) والمدارس الإسلامية في العالم الإسلامي، وبذلك يتخلخل ويهتز فكر الشباب المسلم، الأمر الذي يؤدي -بطبيعة الحال- إلى أن يتخرّج الطلاب من هاتين الجامعتين، وخرِّيج كُل منهما يختلف في تفكيره

عن الآخر، بل صار بينهما تضاد عميق، وبون شاسع! ووصل الأمرُ ببعض هذه الجامعات العصرية أن صارت تحتفل بمولد أناس عُرفوا بمعاداتهم الشديدة للإسلام، وذمّهم الكبير، وانتقاصهم الواسع للعرب: كما فعلت إحدى الجامعات في مصر، حين احتفلتْ بذكرى مرور مئة سنة على ولادة الفيلسوف (رينان)!

وتبنّت هذه الجامعات العصرية وجهة النظر الغربية في الإسلام والعرب والشرق: وذلك بتأثير المستشرقين الذين كانوا يُدرّسون فيها، وقد جعلت سوراً من حديد بين العلم الذي يدرسه أبناء المسلمين والإسلام الذي ينتسبون إليه! هذا: وقد جعل الغربيون كثيراً من الجامعات الغربية –في الوقت الأخير– تجمع بين العبادة والعلم! ففي جامعة (أوكسفورد) –مثلاً– تسع عشرة كليّة، وفي كلّ منها كنيسة، والطلبة ملزمون بالصلاة فيها في أوقات معينة. ولا يخفى على القارئ اللبيب الفرق الواسع بين الإسلام والنصرانية في موقف كل منهما من العلم، فليتأمّل!

على أن الجامعات الغربية كان مخططها دقيقاً، إذ عملت على الوصول إلى الهدف في تشكيك المسلمين بدينهم وتاريخهم وقيمهم، من غير أن تصطدم اصطداماً مباشراً بالإسلام، ومن غير أن تستثير من يحمل حباً للإسلام فتخسره: وذلك في ترويج دراسات المستشرقين في القرآن والوحي والرسول واللغة العربية والعقيدة والشريعة. وممّا يدلّنا على ذلك أن الجامعة الأمريكية في بيروت ظلّت خمس عشرة سنة تدرّس العلوم باللغة العربية، ثم ألغتْ ذلك، فصار تدريسها بالإنجليزية. وفي جامعة الجزائر كان التعليم بالفرنسية، وكذلك الأمر في معهد الدراسات العليا في تونس!

والطالب في هذه الجامعات الأجنبيّة يتخرّج فيها، وولاؤه لدين غير دينه، وحضارة غير حضارته، وأمة غير أمّته. إنّ ذلك -كله- انكشفَ أمامَ الناس انكشافاً واضحاً حين وقف (عبد القادر الحسيني) يُوزّع الشهادات لخريجي الجامعة الأمريكية سنة ١٩٣٢م، وألقى كلمة قال فيها:

((إن هذه الجامعة التي تظهر أمام الناس في مظهر المدرسة العالمية، هي في الحقيقة تعمل على إفساد العقائد الدينيّة، وهي تطعن في الدين الإسلاميّ، وإنّ الجامعة الأمريكية التي ادّعت أنها علميّة محضة وليس لها أدنى علاقة بحوادث التبشير ليست كذلك))[1]. وقد أتى في كلمته هذه بأدلّة كثيرة أثبتت ما قرره.

ويُعرب (ماسينيون) عن مهمة جامعات فرنسا تجاه الطلاب المسلمين فيقول:

((إنّ هؤلاء الطلاب المسلمين الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يُصاغوا صياغةً غربيّة خالصة، حتى يكونوا أعواناً لنا في بلادهم))[2].

وهكذا فإنّ جامعات الغرب كانت تقبل الطلاب الذين يدرسون العلوم النظرية والآداب والعقائد واللغات والفلسفات، أكثر من قبولها الطلاب الذين يريدون دراسة العلوم التجريبية، إذ لم تقبل من الطلاب المسلمين في العلوم التجريبية إلا العدد القليل.

ويعود المبعوثون بعد أن أجرت لهم الجامعات الغربية عملية (غسل الدماغ) إلى بلادهم، وقد حملوا أفكار المستعمرين نفسها التي تقلّل من سلطان الإسلام

---

(١) من التبعية إلى الأصالة. للأستاذ أنور الجندي. ص١٢٩.

(٢) من التبعية إلى الأصالة. للأستاذ أنور الجندي. ص١٩.

وأهميته، بل توهنه وتضعفه! وإذا علمنا أن إقامة الطلاب في ديار الغرب حين الدراسة تكون مدة ليست بالقصيرة، وأن تلك الديار فيها من الانحراف والميوعة والضلال الشيء الكثير، وأن المقيم في تلك الديار يتأثّر بأعراف القوم إن لم تكن له حصانة من دينه تقيه من شرور ذلك المجتمع الفاسد، أدركنا أنّ قسماً من طلابنا، بل إنّ كثيراً منهم يتأثر بتلك البيئة، لكن هذا التأثير يختلف من فرد لآخر قوة وضعفًا، إيجاباً وسلباً.

هذا الغرس الخبيث كان من ثمراته ما نراه اليوم في العالم الإسلاميّ من إعراض وصدود عن شريعة الله رب العالمين!

المستشرقون واثارهم في الغزو الفكري

المستشرقون: هم الغربيون الذين كتبوا ويكتبون في الإسلام: بعقيدته وشريعته وتاريخه ولغته وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وديانات الشرق. وقد كان لما كتبوه ويكتبونه أثر ليس بالقليل في العالمين الغربي والإسلامي. أما في العالم الغربي، فإنّ من أراد أن يتعرف على الشرق الإسلامي بعقيدته وشريعته وتاريخه، فلا بدّ أن يرجع إلى ما كتبه المستشرقون في الغالب، وقد صاغت تلك الكتاباتُ الخلفيّةَ الفكريّة عن الإسلام لدى الغربيّين.

وتتفاوت آراء المثقفين في الشرق الإسلامي في أمرِ المستشرقين: فهناك من ينظر إليهم على أنهم أعداء ألدّاء، وُجدوا لتشويه عقيدة الإسلام وشريعته وصرف العالم الغربي عن الدخول في الإسلام. وعلى العكس من ذلك ينظر إليهم آخرون بعين الإكبار، ويتحمّس إلى الآراء التي طرحوها في مسائل مهمّة.

وحين ننظر إلى الواقع الذي نعايشه، نرى أن آراء المستشرقين صارت لها مكانتها في فكر كثير من مثقفينا، فمن غيرِ الصواب أن نضرب على آرائهم صفحاً بتجاهلها أو رفضها.

خلفيّة المستشرقين

تدلنا الدراسات على أن أكثر المستشرقين كانوا من موظفي المؤسسات الصليبية والصهيونية والدوائر الاستعماريّة من رجال الكهنوت في أوروبا، وقد جمع قسم منهم بين خدمة الكنائس والاستعمار معاً، وهذا ما نجده في المستشرق الفرنسي (ماسينيون)، والمستشرق الإنجليزي (هاملتون جب)، والمستشرق الهولندي (سنوك). ففي القرن التاسع عشر استولى الإنجليز على الهند سنة ١٨٥٧م، وفي السنة نفسها استولت فرنسا على الجزائر كلها، وفي سنة ١٨٨١م

تمّ احتلال مصر وتونس، وعند ذاك خضع العالم الإسلاميّ لنفوذ الاستعمار الغربي بعد الحرب العالميّة الأولى، فكان كثير من المستشرقين الذين لهم مكانة في الحركة الاستشراقيّة على اتصال مستمرّ بوزارات الاستعمار، وعمد عدد ليس بالقليل منهم في مجال (التنصير) الذي كان يُطلق عليه اسم (التّبشير)، قال المستشرق الألماني (استفان فيلد): ((توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لا بدّ أن يعترف به المستشرقون المخلصون صراحةً))[1].

هكذا قام المستشرقون بتقديم خدمات كبيرة للمستعمرين، فكانوا يدرسون عناصر القوة في المسلمين ليقضوا عليها، وجوانب الضعف فيها لتعميقها. ونستطيع أن نقول من غير تردد: إن المفهوم الصحيح لحركة الاستشراق بصورة عامة هو: (العلم في خدمة السياسة والاستعمار).

دوافع الاستشراق واتّجاهاته وأهدافه

لم يكن للمستشرقين دافع واحد من وراء دراستهم للإسلام، بل هناك عدد من الدوافع، من أهمها:

أولاً: الدافع الديني: ربما كان الدافع الديني من أقوى الدوافع لحركة الاستشراق، فقد هُزم الغرب في حروبه الصليبيّة، وظلت عقابيل تلك الهزيمة تعمل عملها في نفوسهم، وقد أدركوا أن قوّة الحديد والنار لا تجدي نفعاً مع المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله، وطلبوا الموت لتوهب لهم الحياة، فابتكروا خديعة جديدة يستخدمونها للنيل من الإسلام وأهله، وهي تشويه حقيقة

---

(١) الإسلام في مرآة الفكر الغربي. للدكتور محمود حمدي زقزوق. ص٦١.

الإسلام، والتشكيك في قيمه وحضارته، وقد أقرّ بهذه الحقيقة عدد من المستشرقين المنصفين وغيرهم. يقول المستشرق النمساوي (ليوبولد فايس) وقد أسلمَ وتسمى باسم محمد أسد:

((أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعية، تقوم على المؤثرات التي خلّفتها الحروب الصليبيّة، بكلّ ما لها من ذيول في عقول الأوروبيّين الأوّلين))[1].

ويقول (ولفرد كانتول سميث):

((وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون قد تغلبوا قط على آثار ذلك الصراع الرئيس المتطاول الأمد، أو على آثار الحروب الصليبيّة التي استغرقت قرنين من الحرب (العقديّة) العدوانية المريرة))[2].

ثانياً: الدافع السياسي: كانت الحركة الاستشراقيّة عوناً للمستعمرين الذين استعمروا البلاد العربية والإسلامية، واستغلال ذلك كله لمصلحة المستعمرين من أجل تثبيت أقدامهم في الدول المستعمَرة.

ثالثاً: الدافع الاقتصادي: كان الشرق الإسلامي -ولا يزال كذلك- غنيّاً بالمواد الخام الطبيعيّة. ولما حدثت الثورة الصناعية في أوروبا، أراد الأوروبيّون أسواقاً لبيع صناعاتهم فيها، ولاستيراد المواد الأولية التي يحتاجونها، فاتّجه

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق. لمحمد أسد. ص٦٣. ترجمة الدكتور عمر فروخ. دار العلم للملايين. بيروت.

(٢) المستشرقون والإسلام. لمحمد قطب. ص٣٢. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م. مكتبة وهبة. القاهرة. نقلاً عن كتاب الإسلام في التاريخ الحديث. لولفرد كانتول سميث. ص١٠٥-١٠٦. من الأصل الإنجليزي. الطبعة الرابعة ١٩٦٦م. مطبعة جامعة أوكسفورد.

المستشرقون لدراسة الشرق الإسلاميّ، وعلموا ما يحويهِ من ثروات هي المواد الأوليّة للصناعات.

وهناك دوافع أخرى غير هذه الدوافع آثرنا عدم ذكرها من أجل الاختصار.

وكما أن دوافع المستشرقين متعددة، فإنّ اتجاهاتهم متعددة أيضاً، ومن أهم تلك الاتجاهات، ما يأتي:

١- **الاتجاه النصراني**: والمستشرقون من هؤلاء كثرة كاثرة، ولهذا الاتجاه فرعان:

أ- الاستشراق الكاثوليكي.

ب- الاستشراق البروتستانتي.

وتختلف عقائد كلٍ من هذين المذهبين، لكنهما يتفقان على هدف واحد: هو محاربة الإسلام، خشية أن يخترق حمى النصرانية، لذلك صاروا يحجبون حقائق الإسلام عنهم أولاً، ويقومون على التشكيك بهِ والافتراء عليه بعد ذلك.

٢- **الاتجاه اليهودي**: وقد حرص أصحاب هذا الاتجاه على خدمة المطامع الصهيونيّة، وكيفوا أنفسهم ليكون لهم دور مهم في الحركة الاستشراقية من غير أن يدخلوا الحركة باسم اليهود، لكيلا يعزلوا أنفسهم فيقلّ تأثيرهم. وقد حقّقوا ما يصبون إليهِ من الإساءة إلى الإسلام أولاً بالتشكيك فيه، وتبيان فضل اليهوديّة على الإسلام بزعمهم، وخدمة الحركة الصهيونيّة ثانيّاً. ووصل قسم منهم إلى الجامعات لينفثوا سمومهم فيها كالمستشرق المجري (جولد تسيهر)، وقد بلغ شأواً كبيراً لدى المستشرقين، حتى صار رئيس علماء (الإسلاميات) في أوروبا، وكانت كتاباته ودراساته زاداً للمستشرقين الذين طعنوا بالإسلام بعقيدته وشريعته. وجاء بعده بستّين سنة المستشرق الألماني (جوزيف شاخت)،

وحمل ما حمل من افتراءات وأكاذيب حول السنّة النبويّة أكثر من افتراءات (جولد تسيهر)، وكانت كتابات كل واحد منهما أهم مراجع من أتى بعدهم من المستشرقين. وليس هذان المستشرقان وحدهما من اليهود، فهناك كثير غيرهما، مثل المستشرق الإنجليزي (مرجليوث)، والمستشرق (برنارد لويس) وهو يهودي الأصل وبريطاني الجنسيّة، وحصل على الجنسية الأمريكية أيضاً، والمستشرق الفرنسي (رودنسون)، والمستشرق (ليفي بريل).

٣- **الاتجاه الإلحادي الأوروبي**: ويضم عدداً من المستشرقين الغربيّين الملحدين الذين لا يؤمنون بأيّ دين قطّ، وقد حرصوا على نشر الأفكار الإلحاديّة هنا وهناك.

٤- **الاتجاه المنصف**: ويتمثّل بمستشرقين منصفين درسوا الإسلام عن كثب، دراسة علمية موضوعيّة، وكانوا محايدين في دراساتهم من أجل الوصول إلى حقيقة الإسلام، فتوصلوا إلى نتائج صحيحة، وقد بهرتهم الدقّة المتناهية لشريعة الإسلام؛ فأعلن قسم منهم انضواءه تحت لوائه على رؤوس الأشهاد. وهؤلاء لم ينجوا من غمز المستشرقين الحاقدين لهم، ولم ينجوا أيضاً من الدوائر الغربية التي قلّلت من شأنهم وشأن ما توصّلوا إليه.

أما الذين لم يسلموا من الذين عرفوا عظمة شريعة الإسلام، فحجّتهم أن تغيير دينهم فيه ما فيه من المتاعب المستقبلية لهم، بسبب انفضاض عدد من الأقارب والأصدقاء الذين أعمتهم الضلالة عن هذا الدين عنهم؛ أولئك الذين لم يعرفوا عن الإسلام غير الشبهات الكاذبة بسبب التضليل الذي قام به أكثر المستشرقين، فوق الإعلام الظالم الغاشم.

وهناك من المستشرقين من توصلوا إلى حقيقة هذا الدين، لكن ما توصلوا

إليه فيه شيء من الدخن والشوب. وهناك منهم من توصل إلى خطأ محض، وكان من أسباب ذلك: جهلهم باللغة العربية، أو معرفتهم بها ولكن بمقدار.

وأما أهداف الاستشراق، فهي التدمير والإفساد فيما يتعلق بشريعة الإسلام، وقد حمل لواء ذلك، الاستشراقُ الكاثوليكي والبروتستانتي، والاستشراق اليهودي الموجَّه إلى هدم دين المسلمين والنصارى معاً.

ومن أهداف الحركة الاستشراقية أيضاً: تمزيق الأمة العربية، والعمل على أن يظل العرب متفرقين، وقد قالت (ماجالي مورس) أستاذة الحضارة الإسلامية في (السوربون) بباريس:

((إنّ الاستشراق كان سبباً أساسيّاً في منع الوحدة بين البلاد العربيّة، وقد استنتجتُ من دراساتي أنّ الروابط العربية قويّة وراسخة، وأنّ الوحدة العربيّة ممكنة، وهي موجودة الآن على مستوى الدين واللغة والثقافة، ويمكن تعميقها))[1].

تاريخهم

مرّت الحركة الاستشراقية بمراحل حتى استوت على عودها، ووصلت إلى ذروتها. أما بداياتها، فكانت في نهاية القرن الحادي عشر الميلاديّ، فقام (جربر دي أرالياك) و(قسطنطين الإفريقي) و(روجر بيكن) وغيرهم، بحملاتهم الظالمة على السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي!

وفي عام ١٣١٢م، قرر مجمع فيينّا إدخال اللغة العربية في جامعات: باريس وبولونيا وأوكسفورد وسلمنكا. كما عمل (فرنسيس الأسيزي) على إدخال اللغة

---

(١) المستشرقون المعاصرون. لفيليب حتي. عصر النبوة والخلافة الراشدة. للدكتور فاضل محمد عواد الكبيسي. ص٢٣. الطبعة الأولى. ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م. دار الفرقان. عمان. الأردن.

العربية في المعاهد المسيحية في الدراسات العليا. ((وقد اعترف بأن عمله هذا كان من أجل خدمة الكنيسة والتبشير، وليسَ عملاً علمياً بحتاً))[1].

وفي ٩/ ٥/ ١٦٣٦م، أنشئَ كرسي اللغة العربية في جامعة (كامبردج)، وقد تضمّن قرار إنشائه عبارة تفصح عن المراد منه: ((ولكننا نهدف إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة، والدعوة إلى الديانة المسيحية، بين هؤلاء الذين يعيشون إلى الآن -يقصد المسلمين- في الظلمات))[2].

وما إن حلّ القرن السادس عشر الميلادي، حتى بدأ المستشرقون يعملون عملهم على وفق خطة مدروسة!

وفي نهاية القرن الثامن عشر زادت حركة الاستشراق، فظهرت في (إنجلترا) أولاً سنة ١٧٧٩م، ثم ظهرت في (فرنسا) سنة ١٧٩٩م، ولم يدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية إلا عام ١٨٣٨م.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر: قام المستشرقون بتشويه السيرة النبوية بدوافع دينية، ومن هؤلاء الذين قاموا بهذا العمل (وليم بيدويل) و(هاتينجر) وغيرهما. ووصلت حركة الاستشراق قمّتها خلال القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين[3].

---

(١) أوروبا في مواجهة الإسلام. لعبد العظيم المطعني. ص١٢٣. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٣م. مكتبة وهبة. القاهرة.

(٢) أوروبا في مواجهة الإسلام. ص١٢٣.

(٣) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي. للدكتور محمد ياسين مظهر صديقي. ص١٥. ترجمة الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم. الطبعة الأولى. ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. دار الصحوة.

طلائع المستشرقين المؤثرة

بدأت طلائع المستشرقين المؤثرة في القرن الثامن عشر، وفيه بدأ الغرب استعماره للبلاد العربية والإسلامية، فقاموا بدراسة اللغة العربية وما يتعلق بالإسلام من عقيدة وشريعة وتاريخ وأخلاق، وظلوا قابعين بين جدران أربعة، تحيط بهم أكداس من الكتب التي كتبت باللغة العربية. وبعد تلك العزلة التي عايشوها، خرجوا من محبسهم الذي ارتضوه لأنفسهم ليتصلوا بالمسلمين في ديارهم، رافعين شعار البحث العلمي النزيه، واستطاعوا -بعد ذلك- أن يجمعوا مئات الآلاف من نفائس مخطوطاتنا من البلاد العربية والإسلامية في شتى العلوم والفنون والمعارف، مشتراة تارة، ومسروقة تارة أخرى.

ويذهب الأديب الكبير محمود محمد شاكر -رحمه الله- إلى أن حركات التبشير والاستعمار والاستشراق إخوة أعيان لأبٍ واحد وأمٍ واحدة، فهم متعاونون متآزرون وكلهم يدٌ واحدة على المسلمين[1].

ويتحدث الدكتور إبراهيم اللبان في الصلة الوثيقة بين السياسيين في الغرب والمستشرقين، فيقول: ((الواقع أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات -أي: كليات اللغات الشرقية في أوروبا من المستشرقين- ويرجعون إلى آرائهم قبل أن يتخذوا القرارات المهمة في الشؤون السياسيّة الخاصة بالأمم العربية والإسلامية، وقد سمعت أحد كبراء المستشرقين يتحدث أمامي فيذكر أن (مستر أيدن) كان قبل أن يضع قراراً سياسياً في شؤون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين، ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرر ما يقرر في

---

(١) المتنبي - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. لمحمود محمد شاكر. ص٤٩-٥٠. مطبعة المدني. ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م. القاهرة.

ضوء ما يسمع منهم. هذا إلى أن بعضهم كان يؤسس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية، ويتخذ من هذه الصلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التجسس في أثناء الحرب))[1].

دعم الغرب للحركة الاستشراقية

مصالح الغرب في البلاد العربية والإسلامية كثيرة. والمستشرقون خير من يقدمون إلى دولهم تلك المصالح. ولا يستطيع المستشرقون أن يقوموا بمهماتهم ما لم يكن لهم معين لا ينضب من المساعدات المالية. وهكذا استمرت الحركة الاستشراقية في مهمتها بعد ذلك الدعم الذي قدمته الحكومات الغربية لهم؛ لأن دول الغرب في أشد الحاجة إلى المستشرقين.

يقول (أوليريش هارمان):

((وطبعاً هناك أيضاً الضغط المُلحّ من قبل أولئك الذين يقدِّمون الأموال لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم العربي والإسلامي، والتشبّث به باعتباره منطقة اضطراب، حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه))[2].

مؤتمراتهم الدولية

أما المؤتمرات الدولية للمستشرقين، فقد ظهرت في القرن التاسع عشر. وكثرت تلك المؤتمرات حتى وصلت في بداية الثمانينيات إلى ثلاثين مؤتمراً عدا

---

(١) الإسلام في العقل العالمي. لتوفيق يوسف الواعي. ص٢٤٢. نقلاً عن: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم. للدكتور مصطفى السباعي. ص١٩. طبعة دار البيان ١٩٦٨م. الكويت.

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. للدكتور محمود حمدي زقزوق. ص٥٨. نقلا عن مجلة المباحث ١٤٤.

الندوات واللقاءات الإقليمية، ولا تزال تلك المؤتمرات يعقدها المستشرقون بين حين وآخر، وتضم هذه المؤتمرات الدولية للمستشرقين مئات العلماء، فمثلاً: مؤتمر (أوكسفورد) كان يضمُّ سبعمئة عالم من خمسٍ وعشرين دولة، وخمس وثمانين جامعة، وتسع وستين جمعية علمية، ومجموعات العمل في كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة، تختص كل منها ببحث مجال معين من الدراسات الاستشراقية، وتنشر بحوث هذه المؤتمرات في مجلدات للإهتداء بها كنظم ومناهج ووسائل، ثم أصبحت –مع دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والإقليميّة– أصولاً وأمهات وأسانيد للباحثين[1]. أمّا مجلاتهم ودورياتهم فكثيرة يزيد عددها عن ثلاثمئة مجلة بمختلف اللغات[2].

جيش سلاحهُ القرطاس والقلم

من الكلمات الرائعات التي افتتح بها الدكتور عبد العظيم المطعني حديثه في المستشرقين، قوله: ((جيش آخر من جيوش الحرب الباردة التي خاضتها – وتخوضها– أوروبا ضدّ الإسلام والمسلمين، جيش سلاحهُ: القرطاس والقلم، وقذائفه الكلمات، وغزوه موجه إلى العقول والقلوب، وهدفه إحداث خلل في العقائد والسلوكيّات والأخلاق. والمستشرقون والمبشرون صنوان لشجرة واحدة –ملعونة– هي: الحقد على الإسلام والمسلمين))[3].

وهذا وصف دقيق وصادق على هذه الحركة، فكم خُدِع بها مَن خُدِع من الطلاب الذين شدّوا الرّحال إلى دول الغرب ليحصلوا على درجة الماجستير أو

---

(١) المستشرقون. لنجيب العقيقي ٣/ ٣٦٥.

(٢) المستشرقون. لنجيب العقيقي ٣/ ٣٧٧–٣٨٨.

(٣) أوروبا في مواجهة الإسلام. للدكتور عبد العظيم المطعني. ص١٠٩.

الدكتوراه أو كلتيهما في الدراسات الإنسانية وليس في علوم (التكنولوجيا) و(المعارف)؛ لأن أوروبا لا تعطي العرب والمسلمين من ذلك إلا بمقدار، فعادوا إلى بلادهم بغير الوجوه التي ذهبوا بها، فكانوا معاول هدمٍ يهدمون بها حصون العقيدة وقلاع الإيمان من حيث يشعرون أو لا يشعرون! يقول المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون):

((إنّ الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يُلوَّنوا بالمدنية المسيحية))[1].

ومن أساليبِ الهدمِ في حصون أمّتنا التي اتّبعها هذا المستشرق: دعوته إلى الكتابة باللّهجاتِ العاميّة؛ لتتقطّع أواصر الصلة بين العربِ فيما بينهم، فلا يفهم -عند ذاك- العراقي على المغربي، ولا السوريّ على التونسيّ، ولا الأردنيّ على الجزائريّ. وبهذا تنقطع صلة العرب بالقرآن الكريم، وبأحاديث رسول اللهﷺ، وبتاريخ العرب والمسلمين وتراثهم.

ويعترف هذا المستشرق بالدوافع التي دفعته للبحث في شؤون الشرق الإسلاميّ، فيقول:

((لم نبحث في الشرق إلا عن منفعتنا. لقد دمَّرنا كل ما هو خاص بهم، فدمّرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأدبهم، والشرقيون ليسوا من السّذج حتى يعتقدوا بكرمِ أخلاقنا، وقد تحققوا بالشواهد أننا نرغب في أن نبقيهم ضعفاء))[2].

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية. لعمر فروخ ومصطفى الخالدي. ص٨٩. طبع سنة: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م. المكتبة العصرية. بيروت.

(٢) من حاضر اللغة للأستاذ سعيد الأفغاني. ص١٧٤. الطبعة الثانية. بيروت.

ويعرب المستشرق الفرنسي (شاتلييه) عن الأساليب التي تخضد شوكة المسلمين، فيقول:

((إذا أردتم أن تغزوا الإسلام، وتخضدوا شوكته، وتقضوا على هذه العقيدة التي قضت على كلِّ العقائد السابقة واللاحقة لها، والتي كانت السبب الأول والرئيس لإعزاز المسلمين وشموخهم، وسبب سيادتهم وغزوهم للعالم – عليكم أن توجهوا جهود هدفكم إلى نفوس الشباب المسلم والأمة الإسلامية بإماتة روح الاعتزاز بماضيهم وتاريخهم وكتابهم القرآن، وتحويلهم عن ذلك بواسطة نشر ثقافتكم وتاريخكم، ونشر روح الإباحية، وتوفيرِ عوامل الهدم المعنويّة حتى لو لم نجد إلا المغفلين منهم والسذج والبسطاء لكفانا ذلك؛ لأن الشجرة يجب أن يتسبب لها في القطع أحد أغصانها))[1].

لذلك قاموا بتمزيق وحدتنا الفكرية، ونددوا بتاريخنا وحضارتنا، وشجعوا النزعات الإقليمية، وعملوا على التشكيك بالإسلام، وزعموا أن الإسلام ملفق من اليهوديّة والنصرانيّة وأن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني، وركّز كثير منهم جهوده على الطعن بالقرآن العظيم، وسنة الرسولﷺ، وقاموا بنقد أحكام الشريعة الإسلامية كنقدهم لتعدد الزوجات والرقّ، والطلاق، والجهاد، وصلاح الشريعة الإسلامية للتطبيق...

ولقد تحكّم المستشرقون تحكّماً طائشاً لا يقرّه البحث العلميّ النّزيه: فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث الشريف، وينقلون ما

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة. للأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. ص٩٩. الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م. دار القلم. دمشق.

كتبه (الدّميري) في كتاب (الحيوان) عن أبي حنيفة، ولا يرجعون إلى ما كتبه تلاميذ أبي حنيفة في فقهه، ويسوقون الخبر مقطوعاً عن مصدره، ويستنبطون استنباطاتٍ تضحك الناس حتى الثكلى. يقول مستشرق إنجليزي وهو يتحدث عن الحضارة الإسلاميّة:

((كان إله محمد النّاقة التي يركبها، والدليل على ذلك أنه حينما هاجر إلى المدينة، ودعاه أهلها للنزول عندهم، قال لهم: دعوا الناقة حيثُ تبرك))[1].

أساليب جمهرة المستشرقين

قبل أن تبدأ الجمهرة من المستشرقين بكتابة بحوثهم، تكون قد وضعت لها أهدافاً تبغي الوصول إليها. فهم ينقلون العبارات من هنا وهناك من غير أن يتحقّقوا من صحّتها، ويقومون بتحريفِ النصوص تحريفًا مقصوداً، ويسوقون الخبر مقطوعاً عن مصدره، ويعتمدون على روايات ضعيفة وشاذة وغريبة لا تصمد أمام البحث العلمي، ويصدرون أحكامهم بموجبها. إنهم يفعلون ذلك، ويقدّمون تلك الروايات على الروايات الصحيحة المشهورة المعروفة، من أجل الوصول إلى ما يريدون من تقرير رأي كانوا قد وضعوه أمام أعينهم قبل أن يبدؤوا ببحوثهم ويستعملون أساليب كثيرة في نفي حوادث من السنّة النبويّة، وقد يكون أسلوب نفيهم بتجاهل تلك الوقائع وليس بنفيها نفياً مباشراً. ومن أساليب قسم منهم أنّهم يقولون قولاً، ثمّ يقولون قولاً آخر يناقضه في كتاب آخر. وقد يقول أحدهم قولاً ويردّ عليه آخر. كل ذلك من أجلِ التشويش على شريعة الإسلام!

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة. ص٨٩.

وهناك من المستشرقين من يكتب كتاباً وفي صفحاته الأولى مدح للإسلام وإنصاف له، وذلك من أجلِ التمهيد لدسّ ما يريد دسّه من السموم بعد ذلك، كما فعلَ (ولفرد كانتول سميث) في كتابه: (الإسلام في التاريخ الحديث).

صورة العرب والمسلمين لدى المستشرقين

ما أكثر الصور السيئة المفتراة على العرب والمسلمين التي نقلها المستشرقون إلى بني جنسهم من الأوروبيّين، ولا تزال تلك الصور المتخلفة باقية في أذهان الكثرة الكاثرة من الغربيّين إلى يوم الناس هذا. وقد كتب الأديب العلامة محمود محمد شاكر -رحمه الله- عن الصورة السيئة التي نقلها المستشرقون عن العرب والمسلمين لبني جنسهم من الأوروبيّين، فقال:

((والمستشرق فتًى أعجميّ ناشئٌ في لسان أمّته وتعليم بلاده، ومغروس في آدابها وثقافتها، (ألمانيّ، أو إنجليزيّ، أو فرنسيّ)، حتى استوى رجلاً في العشرين من عُمُره أو الخامسة والعشرين، فهو قادر -أو مُفتَرض أنّه قادر- تمام القدرة على التفكير والنظر، ومؤهلّ -أو مفتَرض أيضاً أنه مؤهلّ- أن ينزلَ في ثقافته ميدان (المنهج) و(ما قبل المنهج) بقدمٍ ثابتة. نعم، هذا ممكن أن يكون كذلك، ولكن هذا الفتى يتحوّل فجأة عن سلوكِ هذا الطريق ليبدأ في تعلّم لغة أخرى -هي العربية هنا-، مفارقة كلّ المفارقة للّسان الذي نشأ فيه صغيراً، ولثقافته التي ارتضعَ لبنها يافعاً، يدخل قسم اللغات الشرقيّة في جامعة من جامعات الأعاجم، فيبتدئ تعلّم (ألف باء تاء)، أو (أبجد هوّز) في العربية. ويتلقى العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وشعرها وسائر آدابها وتواريخها، عن أعجميّ مثله، وبلسانٍ غير عربيّ، ثمّ يستمعُ إلى محاضرٍ في آداب لغة العرب أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسانٍ غير عربيّ، ويقضي في ذلك بضع سنواتٍ

قلائل، ثم يتخرّج لنا (مستشرقاً) يُفتِي في اللّسان العربي، والتاريخ العربي، والدّين العربيّ))[1]. عجبٌ، وفوق العجب!!

((كيف يجوز في عقل عاقلٍ أن تكون بضع سنواتٍ قلائل كافيةً لطالبٍ غريب عن اللّغةِ وهذه حالهُ أن يُصبح محيطاً بأسرار اللغة وأساليبها الظاهرة والباطنة، وبعجائب تصاريفها التي تجمّعت وتداخلت على مرّ القرون البعيدة في آدابها، وأن يُصبحَ بين عشيّة وضحاها مؤهّلاً للنزول في ميدانِ (المنهج) و(ما قبل المنهج)؟ كيف؟ مع أنّ هذا الشرط صعب عسير على الكثرة الكاثرة من أبناء هذه اللغة أنفسهم، ولا يبلغ هذا المبلغ إلا القليل منهم؟ كيف يجوز هذا في عقل عاقل؟ هذا، مع أنه أيضاً تعلّمها تلقّياً من أعجميّ مثله، ولم يخالط أهلها مخالطةً طويلة متماديةً تتيحُ له التّلقيَ عنهم تلقّياً يبصِّرهُ ببعض هذه الأسرار. غاية ما يمكن أن يحوزهُ (مستشرق) في عشرين أو ثلاثين سنة، وهو مقيم بين أهلِ لسانه الذي يَقرعُ سمعه بالليل والنهار: أن يكون عارفاً معرفةً مّا بهذه (اللغة)، وأحسنُ أحوالهِ عندئذٍ أن يكون في منزلة طالبٍ عربيّ في الرابعة عشرة من عمره، بل هو أقل منه على الأرجح، أي هو في طبقة العوامِّ الذين لا يَعتدّ بأقوالهم أحد في ميدان (المنهج) و(ما قبل المنهج). أليسَ كذلك))[2].

---

(١) ما بين القوسين. منقول من فصل كتبه محمود محمد شاكر في كتابه (برنامج طبقات فحول الشعراء). ص١١٥-١٢٧. وفيه تفصيل وبيان وأدلة على فساد عمل (الاستشراق) وعلى التهويل في شأن علم (المستشرقين) بالعربية، فاقرأه هناك.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. للأستاذ محمود محمد شاكر. ص٦٦-٦٧.

حول غزوات رسول الله ﷺ

قام كثير من المستشرقين بنشرِ شبهات حول غزوات الرسولﷺ ومن جاء بعده، فيزعمون أن الجهاد لم يكن إلّا من أجل الغنائم!

وحين يدرس المنصفون غزوات رسول اللهﷺ دراسة دقيقة موضوعية، يخرجون من دراستهم أن الغزوات لم تكن سوى وسيلةٍ من وسائل إزالة العوائق التي تقف أمام دعوةِ الإسلام، فلم تكن سوى نتيجة من نتائجها وليست هدفاً لذاتها. ((وقد جمع الدكتور محمد ياسين مظهر صديقي في بحث له تقديرات الغنائم في عصر السيرة فبلغت: ٦,٦٢٠,٠٠٠ درهم، وهوَ تقدير مبنيّ على أن سعر الجملِ يبلغ ٤٠ درهاً، في حين قُدّر إنفاق المسلمين على الجهاد في عصرِ السيرة ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم؛ أي عشرة أضعاف الغنائم، مما يوضّح أنّ الغنائم لم تكن دافعاً للجهاد))[1].

هدم في الصّميم

وإذا كانت الحركات التنصيرية في العالم قد جعلت أكثر مهماتها في تنصير العامة من المسلمين، وبخاصة الفقراء منهم بإغرائهم بالمال، فإن الحركات الاستشراقيّة قصرت مهمتها على المثقفين في الغالب، وبخاصة من يذهب من طلاب الشرق الإسلاميّ إلى الغرب، فإن مهمة عملها الجامعات ووسائل الإعلام والمؤسسات الثقافية.

وقد يسأل سائل: لمن كتب المستشرقون كتبهم في الافتراء على الإسلام

---

(١) من فقه السيرة النبوية. للدكتور أكرم ضياء العمري. ص٩. الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م. روايا للدراسات والبحوث. الدوحة – قطر.

وأهله؟ والجواب: إنهم كتبوه لبني جنسهم من الأوروبيّين وغيرهم لتظلّ صورة الإسلام مشوهة عندهم خشية أن يعرفوا حقيقة هذا الدين فينضووا تحت لوائه.

لقد خدموا الكهنة والساسة الغربيّين بتلك المفتريات، إذ وضعوا بها الحواجز والموانع بين المثقف الغربي وفهمه للإسلام على حقيقته! لكنهم -في الوقت نفسه- سقطوا إلى الحضيض الآسن حين حرّفوا وشوّهوا عقيدة الإسلام وشريعته، وافتروا على ديننا وتاريخنا، فلم تكن دراستهم علمية كما يزعمون، بل كانت أبعد ما تكون عن العلم الصحيح والمعرفة الحقة.

وتسألني بعد ذلك: هل نجح المستشرقون بتضليل أوروبا وغيرها عن فهم الإسلام؟ فأقول: نعم! لقد نجحوا في ذلك، حتى صارت الغالبية العظمى من الغربيين قد امتلأت قلوبهم وعقولهم ونفوسهم، وامتلأت أفكارهم بالشبهات الكاذبة عن الإسلام، فصاروا ينظرون إليهِ على أنه دين التوحش والهمجيّة، وينظرون إلى المسلمين نظرة ملؤها التخلّف والاحتقار! ويكفي أن نعلم أنّ: ((إدوارد سعيد أحصى مؤلفاتهم ضدّ الإسلام خلال مئة وخمسين سنة، فوجدها بلغت ٦٢ ألف مجلّد، كلّها ضد العروبة والإسلام، أفرزتها المطابع ودور النشر في الغرب فيما بين أعوام ١٨٠٠-١٩٥٠م))[1].

وقد تناولت هذه الكتب علوماً شتى من الفلسفة والتصوّفِ وعلوم الكلام والتاريخِ وتاريخ الأدب العربي والقرآن والسنة. ومن الإنصاف أن نذكر أنّ عدداً قليلاً جداً من هذه الكتب كُتبت بدراسة علمية موضوعية، لكن غالبيتها العظمى لم تكن كذلك. قال المستشرق النمساوي (ليوبولد فايس) -وقد أسلم

---

(١) أوروبا في مواجهة الإسلام. للدكتور عبد العظيم المطعني. ص١١٠.

وتسمى باسمِ محمد أسد-:

((إن الشرّ الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء، وفي مقدمة كلّ شيء، شرّاً ثقافيّاً. لقد نشأ لتسميم العقل الأوروبيّ كما شوّهه قادة الأوروبيّين من تعاليمِ الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب. في ذلك الحين استقرّت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوروبيّين من أنّ الإسلام دين شهوانيّة وعنف حيوانيّ، وأنّه تمسُّكٌ بفروض شكلية، وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرّت))[1].

وحين تُقدِم الغالبية من المستشرقين على بحث أيّ موضوع كان من الموضوعات المتعلقة بالإسلام، لا يدرسون الموضوع دراسة علميّة موضوعيّة؛ لأنهم وضعوا في أذهانهم قبل البحث أنّ الإسلام متّهم! وقد أشار إلى هذه الحقيقة محمد أسد، فقال:

((ويظهر في جميع بحوثهم -بحوث المستشرقين- على الأكثر، كما لو أنّ الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحت في البحث العلميّ، بل على أنه متّهم يقف أمام قضاته. إنّ بعض المستشرقين يمثلون دور المدّعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصيّاً بإجرام مُوكله، لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور: اعتبار الأسباب المخففة))[2].

إن هذا العداء المستحكم من المستشرقين ضد الإسلام يشملُ الغالبيّة

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق. لمحمد أسد. ص٦٠.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق. ص٥٦.

العظمى منهم، فهو ليس خاصاً ببلد هذا المستشرق أو ذاك، بل هو عام في مستشرقي أوروبا، قال محمد أسد:

((إنك تجده في إنجلترا وألمانيا، في روسيا وفرنسا، وفي إيطاليا وهولندا، وبكلمة واحدة في كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام. ويظهر أنهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة –حقيقية أو خيالية– ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد))[1].

تحقيق قسم من المستشرقين مخطوطات إسلاميّة ولغويّة

قام قسم من المستشرقين بتحقيق نوادر من المخطوطات الإسلامية واللغوية، وبفضلهم ظهرت إلى الوجود. بيد أن هذه المخطوطات المحققة لم يطبعوا منها إلا القليل. يقول الأستاذ محمود محمد شاكر متحدّثاً عمّا قام به قسم من المستشرقين في خدمتهم للغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها: ((كانوا لا يطبعون قطّ من أيِّ كتاب نشروه أكثر من خمسمئة نسخة، ولم تزل هذه سنّتهم إلى يومنا هذا، توزع على مراكز الاستشراق في أوروبا وأمريكا، وما فضل بعد ذلك –وهو قليل جداً– كانت تسقط منه إلى بلاد العرب والمسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر، لم يسعوا قطّ إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين، كما يسوّقون بضائعهم وتجاراتهم وسائر ما ينتجون بين هذه الملايين، طلباً لربح المال، هدفهم كان ما قلت لك لا غير))[2].

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق. ص٥٧.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. للأستاذ محمود محمد شاكر. ص٥٤–٥٥. الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م. الشركة الدولية للطباعة. مكتبة الخانجي. القاهرة.

المستشرقون واللغة العربية

كانت اللغة العربية –ولا تزال كذلك– غريبة عن كثير منهم. وإذا كان من هؤلاء من أتقنَ شيئاً من اللغة بعض الإتقان، فإن عجزه يكون ظاهراً في تذوّق كثير من أساليب العرب، ذلك لأن المجتمعات التي يعايشها المستشرقون تحول دون النفاذ إلى فهم تلك الأساليب فهماً صحيحاً. إنّ هذا وغيره جعل قسماً من المستشرقين يُصدرون أحكاماً واغلة بالخطأ على الإسلام في تفسير كتاب الله، وفي شرح سنة رسول اللهﷺ، وفي الكلام عما قاله فقهاؤنا –رحمهم الله–، فنجد المستشرق (فيليب فونداس) قد زعم أن الأموال في نظر المسلم من أصلٍ شيطانيّ، ودليله على ذلك قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1].!

تثني على الشخصيات المارقة عن الإسلام، وتذمّ عظماءهم

وفوق ذلك، فقد اهتمّوا اهتماماً بالغاً بالشخصيات المارقة عن الإسلام، وسلّطوا الأضواء عليها، في الوقت الذي عملوا فيه على تحطيم الشخصيات العظيمة في الإسلام. فإذا كانت حركة الاستشراق حركةً علميةً خالصةً –كما تدّعي– فلماذا تقف من رجالات الإسلام العظام موقف العدوّ الحاقد؟ وتقوم بمهاجمتهم مهاجمة عنيفة، كما فعلت بـ(الإمام الغزالي) و(ابن تيمية) و(ابن خلدون) وغيرهم؟ ولماذا تشيد في الوقت نفسه بأشخاصٍ شوّهوا قسماً من تراثنا، كما فعلت بـ(أبي نؤاس) و(الراوندي)؟

وكذلك تقوم الحركة الاستشراقية بإثارة القضايا الخلافية التي وقعت بين

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة ص٨٩.

المسلمين، وتهتم بالحركات الخارجة عن الإسلام: كالزنج والقرامطة والمجوسية، وتضفي عليها المديح، وتنسِبُ لها من الصفات الجميلة أحلاها وأسناها.

وتكمن خطورة الحركة الاستشراقية في اختفاء كثير منهم وعدم انكشافهم على حقيقتهم أمام العالم الإسلاميّ، وبتأثيرهم البطيء الذي قلّما يشعر به الطالب. يقول الأستاذ عباس محمود العقاد، وهو يتحدث عن حركة التبشير، التي هي الأمّ المرضعة لحركة الاستشراق: ((اتّخذوا القدْحَ في الإسلام صنعةً يتفرّغون لها ويعيشون منها، فلا غنى لأصحاب هذه الخصومة –أو هذه الحرفة– عن اختلاق المآخذ وتصيّدِ التّهم))[1].

منهاجهم ليسَ علمياً

على أنّ الحركات الاستشراقية كلما بان أمرها وانكشف زيفها غيّرت من أسلوبها واتّبعت منهاجاً جديداً لتخدع به المسلمين كي تصل إلى ما تريد، فظهرت بمظهرٍ جديد مدّعيةً أنها تريد البحث العلميّ الخالص، من غير أن تؤثّر فيها العواطف والأهواء، فأنشأت كليات تدرس فيها اللغات الشرقية في العواصم الغربية الكبرى، مثل: لندن وباريس وبرلين. وشُجّعَ الطلاب المسلمون على الدراسة فيها. كل هذا تحت شعار (البحث العلمي) و(الدراسة الموضوعية)، وما هي كذلك، ولكنهم أرادوا الإتيان على البنيان الفكريّ للمسلمين من القواعد. وقد نجحوا في ذلك، فانقلب كثير ممّن تلقى العلم في جامعاتهم يحاربُ الإسلام ويسخر منه، ويخجل من تراثه وتاريخه! وكانت

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. ص٢٥٣. الطبعة الثالثة – بيروت ١٣٨٦هـ.

الحركات الاستشراقية تملك نفوذاً قوياً استطاعت به النفاذ إلى وزارات التربية، فوضعت مناهج للتعليم والثقافة ووسائل الإعلام، ففرَضت الاتهامات وأذاعتها، ثمّ سلمتها من يد إلى يد. يقول الأستاذ إبراهيم اللبان: ((إن المستشرقين يكوّنون -بالنسبة للمسلمين- مشكلةً ثقافيةً ودينية كبرى، لأن أفكارهم: غثّها وسمينها، سقيمها وصحيحها، تسرب إلى بعضِ الجامعات العربية والإسلاميّة، واحتلّت بعض العقول العاملة فيها، واكتسبت منهم أنصاراً وناشرين))[1].

من سموم المستشرقين

أما السموم التي دسها المستشرقون في كتاباتهم، فهي أكثر من أن تحصى؛ فقد اهتمّت بالحياة الجاهلية والعقائد الوثنية، محاولةً أن تخلع عليها ثياب البطولة، واصفة المجتمع الجاهليّ بالقوة والغنى، وأن الأمة العربية قُبيلَ مبعث رسول اللهﷺ كانت على جانب كبير عظيم من الحضارة والعلم، والثقافة والخلق، ولم يزد دورُ رسول اللهﷺ على أن أخذ بأيديهم فنهضوا جميعاً!

ويطلق المستشرق الإنجليزي (هاملتون جب) على العصر الجاهليّ اسم: (العصر البطولي)! ويرفض كثير من المستشرقين تسمية عصر ما قبل الإسلام باسم: (العصر الجاهلي)، بل يصفونه بالاستنارة والحضارة، ويُسمّون العصرَ الإسلاميّ بـ(عصر التوسع)، ليوحوا إلى الناس أن الإسلام إنْ هو إلا امتداد للعصر الجاهلي، وإنه لم يقم بتغيير حقيقي لذلك المجتمع، فهو إذن اقتباس من الحياة الجاهلية بتغيير طفيف! وقد تابع المستشرقين في هذا الرأي: الدكتور (طه

---

(١) مفتريات على الإسلام. للأستاذ أحمد محمد جمال. ص١١. الطبعة الثالثة – ١٣٩٥هـ.

حسين) و(زكي مبارك) وغيرهما[1] وكثير من هؤلاء المستشرقين لا يريدون أن يذكروا الدور العظيم الذي قام به رسول الله ﷺ في توحيد الأمة العربية، بعد تلك الفرقة التي أكلت الأخضر واليابس، وأهلكت الحرث والنسل، والقرآن الحكيم يصوّر حالة الأمة العربية قبل الإسلام فيقول: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[2] ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[3].

اهتمامهم بتراث الجاهلية

إن اهتمام المستشرقين بتراث الجاهلية كان بتوجيه من (الماسونية)، إذ عملتْ -الماسونية- طويلاً على الاهتمام بالتراث الجاهلي اهتماماً بالغاً، وصياغته صياغة جديدة، ودعت إلى العودة إليه؛ فقامت بإحياء عدد من الأساطير، وخرافات قدماء الكلدانيين والعبرانيين واليونان والهنود والمصريين. واهتمت -أيضاً- برموز هؤلاء مثل: (الثور المجنح) و(الثور يحمل فوق قرنيه الشمس) و(الخنفساء الذهبية) و(أبو الهول) و(الحية) و(السمكة) و(الأهرام) و(الدوائر)

---

(١) قال (كرومر) الذي رعى المخطط البريطاني في مصر حين خروجه منها: ((سنرحل عن مصر وسنحكمها برؤوس مصرية وفكر أوروبيّ)). أي أنّ الاستعمار المادي سيرحل عن مصر، أما أثره الفكري فباقٍ في أشخاص مصريين، وهم الذين سيحكمون مصر بفكرنا المعادي للإسلام نيابة عنا. (عن كتاب: أوروبا في مواجهة الإسلام). تأليف عبد العظيم المطعني. ص١١٩.

(٢) آل عمران ١٠٣.

(٣) الجمعة ٢.

و(المثلثات) و(المربعات) و(الأعداد المقدسة): كالعدد ٧. اهتمت بذلك كله، وعملت على بعثه من جديد، لأن ذلك يقلّل في نظر الناس من أهمية الإسلام.

وكانت هذه الدعوات الإقليمية تخدم النفوذ الاستعماري خدمة كبيرة، لأنها تفرق الأمة الإسلامية الواحدة، وتمزّقها شر ممزق، لذلك نرى أعداء الإسلام قد اهتمّوا اهتماماً بالغاً بالدعوات: الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريّة، والآشورية في العراق. ذلك لأن العالم الإسلامي كله كان قد انضوى تحت راية الإسلام الذي وحّد فكره، فصار المسلمون -كلهم- يسْتَقون من هذا النبع الصافي، والمنهل العذب، وهذه الوحدة الفكرية التي كان يتمتع بها العالم الإسلامي أصبحت تُشكّل خطراً كبيراً على النفوذ الاستعماري، لذلك عملوا - ولا يزالون يعملون- على تمزيق هذه الوحدة، لأن النفوذ الأجنبي لا يستطيع أن يُثبّت أقدامه إلا بعد أن يفرّق الأمة الواحدة إلى أمم، والجماعة إلى جماعات، والعنصر إلى عناصر، ينتهج بعضها اتّباع الجنس والعرق، وبعضها ينتهج اتّباع اللغة!

وقد ظهرت في مصر دعوات تدعو إلى إحياء التراث الفرعوني وإلى إحياء لغته وأدبه، لكن هذه الدعوات لم يكتب لها النجاح، إذ سرعان ما أخفقت في أعمالها، وعجَزت عن صبغ مصر بصبغة التراث الفرعوني، بعد أن انقطع المصريون انقطاعاً تامّا عن التراث الفرعوني، وذلك بدخول الإسلام إلى أرض الكنانة، إذ تغيّرت نفسية الناس وطرائق تفكيرهم، ومنهج حياتهم تغيّراً كاملاً، وتخلّصت مصر كذلك من الوثنيات، وصارت تسلك منهجاً ربانيّا.

ويتبين لكل متأمل أن هذه الدعوات كانت ترمي إلى عزل مصر عزلاً تاماً عن التراث الإسلامي، وإدخالهم مفاهيم وثنية فرعونية إلى المجتمع الإسلامي،

لكن تلك الدعوات أخفقت كما أخفقت دعوات مثيلاتها أرادت أن تكيد للإسلام، فحاق مكرها وكيدها ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

وهكذا نقول -أيضاً- في الدعوات الفينيقية التي أرادت سلخ الأمة من الإسلام، وإحياء تراث الجاهلية بأخطائه وانحرافاته. وتركزت هذه الدعوات أكثر ما تركزت في لبنان: فكان المستعمرون يعملون على إقناع اللبنانيين أنهم حفدة الفينيقيين القدماء!

نشرهم للأساطير

ولقد عمل أعداء الإسلام -أيضاً- على نشر الأساطير في الأمة الإسلامية، بعد أن حرر الإسلام عقل المسلم من الخرافة. وكانت الأساطير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوثنية اليونانية والفارسية والهندية، لأن تشجيع الأساطير يعدّ -بحق- محاربةً صريحة لعقيدة الإسلام.

وإذا كان الفكر الغربي يربط بين الأسطورة والدين، فإن الإسلام لا يرتبط بالأسطورة برباط لا من قريب ولا من بعيد، بل أعلن حربه عليها، وحرّر عقل المسلم من كل خرافة أو صورة غامضة.

على أن العرب في الجاهلية لم تعرف من الخرافة إلا قدراً ضئيلاً، وقد قضى الإسلام عليها بعد إشراقه على الوجود، بينما نجد تراث الفراعنة والفرس والهنود مليئاً بالأساطير المشركة.

إن أعداء الإسلام يعرفون ما لهذه الأساطير من أثر سيّء في زعزعة عقيدة المسلم، فعملوا على نشرها في الأدب والثقافة، وتُرجم عدد ليس بالقليل من هذه الأساطير إلى اللغة العربية.

مفتريات ساقطات

ومن مفتريات الحركات الاستشراقية، قولها: إن الإسلام لا يتفق مع العلم! وهذه مقولة غريبة يحيط بها الكذب من كل جانب، ذلك لأن الدين لا يتفق مع العلم في المجتمع الكنسي الذي عاشته أوروبا في عصورها الوسطى، ولكنه لا ينطبق على المجتمع الإسلامي الذي نزلت أوّل سورة من سور القرآن الكريم فيهِ تدعو إلى القراءة والعلم، وتُشيد بالقلم.

وقد كان لهذه الشبهات رواج واسع في المجتمع الغربي -أيضاً- لأن هذه الحركات لا تخشى من شيء خشيتها من دخول المفاهيم الإسلامية الصحيحة إلى الغرب، إذ عند ذاك يدخل الناس في دين الله أفواجاً، وتخسر هذه الحركات جُلّ أنصارها، وتبقى بيوتهم خاوية على عروشها، إذ يُبدّد ضياء الشمس ظلام اللّيل، لذلك عمل المستشرقون على تشويه حقيقة الإسلام في عقول الأوروبيّين، وأقنعوهم أن الإسلام نظام جامد لا يصلحُ لحكم المجتمعات، وأنه يدعو إلى القتل وسفك الدّماء!

وإذا كان كثير من (مثقّفينا) يذكرون بإجلال وإكبار الدور الكبير الذي قام به المستشرقون في بعث تراثنا الإسلاميّ، فإن عليهم أن يعلموا -أيضاً- أن هؤلاء المستشرقين اتّجهوا هذا الاتجاه لدراسة عناصر القوة والضعف في المسلمين، ومعرفة النفسية التي يحملها المسلم، ليكون عملهم التخريبي دقيقاً وناجحاً، وذلك لضمان بقاء النفوذ الاستعماري في البلاد.

موقفان

ونستطيع أن نرى موقفين واضحين للاستشراق من التراث الإسلامي،

الأول: تصوير هذا التراث بصورة التخلف، وعدم قدرته على إمداد

الحضارة بشيء مفيد، وأنه لم يكن له فضل على الحضارات التي جاءت بعده.

الثاني: إحياء الجوانب الضعيفة في هذا التراث، وبخاصة فيما يتعلق بالخلافات السياسية التي وقعت بين المسلمين أنفسهم، والتركيز على دعوات الحركات الباطنية، وإخراجها بصورة جميلة مضيئة، ووصف هذه الدعوات بأنها كانت تحمل فكراً عالياً، وفلسفة عميقة، وكذلك الحال في دعوات الزنج والقرامطة. وهكذا كانت تشيد بالفرق المارقة عن الإسلام، الزائغة في عقائدها.

نقد المستشرقين

على أن المستشرقين في جامعاتهم الغربية –فوق ذلك– لا يسمحون لأي طالب مسلم، في انتقاد مستشرق من مستشرقيهم في كلامه عن الإسلام. يقول الدكتور مصطفى السباعي –رحمه الله– وهو يتحدث عن الدكتور محمد أمين المصري، حين أراد الحصول على شهادة (الدكتوراه) من جامعة لندن:

((وما كاد يطّلع –محمد أمين المصري– على برامج الدراسة –وخاصة دراسة العلوم الإسلامية فيها– حتى هاله ما رآه من تحامل ودسٍّ في كتب المستشرقين، وخاصة (شاخت)، فقرّر أن يكون موضوع رسالته هو نقد كتاب (شاخت). وتقدّم إلى البروفيسور (أندرسن)، ليكون مشرفًا على تحضير هذه الرسالة وموافقاً على موضوعها، فأبى عليه هذا المستشرق أن يكون موضوع رسالته نقد كتاب (شاخت)، وعبثاً حاول أن يوافق على ذلك. فلما يئسَ من جامعة لندن، ذهب إلى جامعة (كامبردج) وانتسب إليها، وتقدّم إلى المشرفين على الدراسات الإسلامية فيها برغبته في أن يكون موضوع رسالته للدكتوراه هو ما ذكرناه، فلم يُبدوا رضاهم عن ذلك، وظنّ أنّ من الممكن موافقتهم أخيراً، ولكنهم قالوا له بصريح العبارة: إذا أردت أن تنجح في الدكتوراه، فتجنّب انتقاد (شاخت)، فإن

الجامعة لن تسمح لك بذلك))[1].

والعجب -كل العجب- أن تُوَجَّه الدعوة إلى المستشرقين في ديار الإسلام ليقوموا بإلقاء محاضراتهم التي تتضمّن أفكارهم المسمومة في الإسلام وتاريخه ولغته، و(هذا من تقلّبات الدهر وعجائب أمره). لقد مرّ على المسيحيّين في أوروبا حين من الدّهر كانوا يشدّون فيه الرّحال إلى الأندلس، ليتعلموا كتابهم المقدّس -التوراة- من علماء المسلمين. أمّا الآن، فقد انقلبَ الأمر رأساً على عقب، حين أصبح المسلمون -وا أسفاه- يرجعون إلى أهل الغرب (أوروبا وأمريكا) يسألونهم: ما هو الإسلام، وما هو تاريخه، وما هي حضارته؟ ليس هذا فقط، بل لقد أصبحوا يتعلمون اللغة العربية منهم، ويستوردونهم لتدريس التاريخ الإسلاميّ، وكل ما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين، لا يجعلونه مادةً للدّراسة في كليّاتهم وجامعاتهم فقط، بل يؤمنون به إيماناً راسخاً، مع أنّهم -أعني أهل الغرب- قوم لا يسمحون لأحدٍ إذا لم يكن من أتباع دينهم بأن يتدخل فيما يتعلق بدينهم وتاريخهم، ولا في أتفهِ الأمور.

((لقد نشر اليهود موسوعتهم: "JEWISH ENCYCLOPAEDI" وما فيها من مقال واحد "AVTICLE" كتبه أحد المسيحيّين فضلاً أن يكتبه أحد من المسلمين، وقد قاموا هم أنفسهم بترجمة التوراة، ويربأون عن أن يمسوا الترجمة المسيحية. وعلى العكس من هذا، فإن علماءهم يكتبون الكتب والمقالات عن

---

(١) السنة النبوية ومكانتها في التشريع الإسلامي. للدكتور مصطفى السباعي. ص٢٥-٢٦. طبعة الدار القومية ١٩٦٦م.

الإسلام، ويتلقاها المسلمون بكلِّ ترحيب))[1].

لقد أدّى الاستشراق دوراً كبيراً في مقاومة الإسلام والتشكيك به، وقد قربت نهاية هذه الحركة، بل هناك تصريحات تعلن أن نهايتها قد حلّت. فقد أعلن في مؤتمر الاستشراق التاسع والعشرين الذي عُقد قبل سنوات أنّ مؤتمر الاستشراق سيُطلق عليه اسم: (مؤتمر العلوم الإنسانية)، ووصفت جريدة (لوموند) الفرنسية هذا التحوّل، واعتبرته موتاً للحركة الاستشراقيّة.

وهكذا انتهت مهمة الاستشراق التي دامت ما يقربُ من مئة وخمسين سنة، ليبدأ عملاً جديداً أشدّ خطراً بعد أن غيّر جلده.

المنصفون من المستشرقين

ولا بد لنا أن نكون منصفين، فنذكر أن من المستشرقين أناساً كرّسوا حياتهم لخدمة العلم، ووصلوا إلى نتائج صحيحة أعلنوها على رؤوس الأشهاد، من غير أن يؤثر بهم تعصّب ديني أو سياسي، فأشادوا بالإسلام وحضارته، وكتبوا كتباً مهمة في الحضارة الإسلامية، وقد هداهم الله للإسلام، ومن هؤلاء: (ليوبولد فايس) وقد أسلم وتسمّى بمحمد أسد، و(دينيه) و(جرمانوس) و(بوكهارت) و(فلوري) و(ميشو يللر) و(جوته) و(ليبون) و(هنري دي كاستري) و(واشنطن أبروينج)...

وكثير من المنصفين من المستشرقين انهالت عليهم وعلى كتاباتهم الردود، متهمين إياهم بالانحراف عن المنهج العلمي، وسيرهم وراء العاطفة، أو مجاملتهم للمسلمين، كما فعلوا مع المستشرق الإنجليزي: (نوماس أرنولد) لما

---

(١) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة. للأستاذ أبي الأعلى المودودي. ص٢٧١.

ألّف كتابه القيم: (الدعوة إلى الإسلام).

وأخيراً: فإن الحركة الاستشراقية استطاعت أن تغرس غرساً خبيثاً في نفوس مثقفينا، وأن تشككهم بتاريخهم وحضارتهم. ولكن من نعم الله على هذه الأمة أن تنبه إلى خطورتهم وما يحملونه من تشكيك في تراثنا: علماء فقهاء حكماء، فنّدوا شبهاتهم واحدة واحدة، وأماطوا اللّثام عن دوافعهم ومناهجهم المبنيّة على الهوى والافتراء.

لغتنا العربية أمام الغزو الفكري

من آثار الغزو الفكري: تشجيع لغة المُستعمر، وتشجيع اللّهجات العاميّة في البلاد العربية، وكتابة الحروف العربية بالحروف اللّاتينية. وهذا يستهدف –بلا ريب– تمزيق وحدة العرب، وعزل الدول العربية عن بعضها عن بعض، وجعل سدود أمام من يريد فهم القرآن الكريم الذي لا يُفهم الفهم الصحيح إلا باللغة العربية فقط. وهكذا تنهدم الوحدة الفكرية في العالم العربي، وتنفصم الصلات بين أجزائه.

ولقد بذل المستعمرون حين سيطروا على بلاد المسلمين جهوداً جهيدة في محاربة اللغة العربية: ففرضوا لغتهم على البلاد التي سيطروا عليها أولاً، وصارت المواد العلمية تدرَّس بلغتهم هم. واتُّخِذت لغة المستعمر وسيلة من وسائل الغزو الفكريّ، وقد أدخلها في مجالات الحياة كلها: في المدرسة والمحكمة والمعمل والسوق، وطاردت لغةُ المستعمر اللغةَ العربية بشدة وضراوة، واحتلَّت مكانة واسعة في ثقافة الأمة الإسلامية، حتى صار كثير من مثقفي الجزائر وسواها محتاجاً إلى التلفظ بمصطلحات فرنسية، لتساعده في التعبير عن آرائه!. وإذا علمنا أن اللغة العربية ليست أداةً فقط، وليست أسماءً وأفعالاً وحروفًا فحسب، بل هي فكر وروح، تحمل بين جنبيها مقوّمات الأمة كلها، أدركنا عظمَ الخطب الذي يترتب على ذيوع لغة المستعمر.

وجاءت –بعد ذلك– الخطوة الثانية: وهي تشجيع اللهجات العامية، والاهتمام بها اهتماماً بالغاً في المسرح والإذاعة والقصص.

وظهرت دعوات في مصر تدعو إلى العودة إلى اللغة القبطية، ونبذ العربية، بعد أن أضفَوا على اللهجة العامية المصرية هالات المدح والثناء، وقالوا: إنها لغة

مستقلة. ووصل الأمر بحقد هؤلاء على اللغة العربية حداً كبيراً حتى قالوا: إن اللغة العربية لغة أجنبية، وإنّ مصر إذا أرادت أن تُحلّق في سماء التقدم والتمدّن والرقي، فلا بدّ أن تعود إلى لغتها القديمة!

وباشر المستعمر في محاربة اللغة العربية الفصحى منذ وقت طويل يرجع إلى الاحتلال الإنجليزي لمصر. ففي أوائل سنة ١٨٨٣م، رفع الوزير البريطانيّ: (لورد دوفرين) تقريراً إلى وزير الخارجية البريطاني، دعا فيه إلى ضرورة محاربة اللغة العربية الفصحى، والاهتمام باللهجات العامية، وعمل كثير من المستشرقين -بعد ذلك- على السير في النهج نفسه في محاربة اللغة العربية الفصحى، مثل: (وليم ويلككس ١٨٩٣م)، و(سبيتا ١٩٠٢م)، و(ويلمور ١٩١٠م)، و(وليم تمبل جردنر ١٩١٧م).

وكانت أعمال هؤلاء جميعاً مقدمات لحركات الاستشراق التي صارت ترعى هذه البذرة الخبيثة التي بذرتها في بلاد المسلمين، فقد دعا إلى هذه الدعوة من المستشرقين: (لويس ماسينيون)، و(كولان)، و(كارل بروكلمان).

ولقد استطاع هؤلاء المستشرقون أن يؤثّروا بتوجيه قسم من المحسوبين على العرب من الذين ينطقون بالعربية، لأنهم أدركوا ما وصّاهم به القسّ: (زويمر) من أن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أغصانها، فحلّ في محل المستشرقين في محاربة اللغة العربية قسم من الناطقين بها المحسوبين على العرب، وصاروا يرفعون أصواتهم عالياً في كل مكان يستطيعون الكلام فيه. ومما كان يردده هؤلاء المحسوبون على العرب:

- إنّ اللغة العربية لغة كلام ولغة كتابة، فلماذا لا نستعمل اللهجة العاميّة التي تُعبّر عن مشاعر الشعب بسهولة؟!

- إن اللغة العربية لغة صعبة، وإن خطّها المليء بالعُقد يحول دون تعلّم الناس لها، فلماذا لا نُبدّل الخط العربيّ بالخطّ اللّاتيني؟!

وقد ابتدأ (قاسم أمين) و(أحمد لطفي السيد) بكتابة مقالات يدعوان فيها إلى (تمصير) اللغة، وإصلاح النحو، فدعا قاسم أمين عام ١٩١٢م، إلى تسكين أواخر الكلمات وعدم النطق بالحركات، ودعا أحمد لطفي السيد إلى إدخال الكلمات العامية في اللغة العربية الفصحى.

وبعد الحرب العالمية الأولى ارتفعت أصوات عددٍ من المعروفين بعداوتهم للأمة الإسلامية، فصاروا يدعون إلى ذلك مثل: (سلامة موسى) الذي دعا إلى استعمال العامية المصرية، وله كتاب فيه من السموم ما فيه، وعنوانه: (البلاغة العصرية واللغة العربية) و(الخوري مارون غصن) الذي دعا إلى اللهجة العامية، ونشر كتابه: (بستان السلوى) عام ١٩١١م، ونشر كتابه الآخر: (درس ومطالعة) الذي تحدّث فيه عن حياة اللغة العربية وموتها، ودعا فيه إلى إدخال علامات الوقف في آخر الكلمات، وصدر الكتاب سنة ١٩٢٤م. وفي ١٩٢٦م، أصدر كتابه: (حياة اللغة وموتها: اللغة العامية)، وهذا الكتاب هو توسعة لكتابه: (دروس ومطالعة).

وجاءت -بعد ذلك- كتابات (أنيس الخوري فريحة) الذي دعا إلى اللهجة العامية -أيضا- وكتابتها بالحروف اللاتينية، وكتب كتابه: (معجم الألفاظ العامية) -في اللهجة اللبنانية- عام ١٩٤٧م. وقد نشر كتابه: (تبسيط قواعد اللغة العربية) سنة ١٩٥٢م. وهاجم اللغة العربية الفصحى مهاجمةً عنيفة في كتابه: (نحو عربية ميسرة). أما (سعيد عقل)، فقد دعا إلى لغة جديدة تحل محل العربية الفصحى، وهي عبارة عن اللهجة العامية مكتوبة بالحرف اللاتيني،

وأصدر كتابه: (يارة) الذي سمّاه شعراً بالحرف اللاتيني، وطبع سنة ١٩٦١م.

وحارب (لويس عوض) العربية الفصحى، ودعا إلى اللهجة العامية في كتابه: (بلوتو لاند) الذي طبع سنة ١٩٤٧م.

ومن المؤسف -حقاً- أن يشترك في هذه المؤامرة اللئيمة (عبد العزيز فهمي)، فقد تقدّم إلى المجمع اللغوي بمصر بمشروع كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينيّة.

وخطا (أحمد لطفي السيد) خطوة لها أهميتها في تأييد موقف المستشرقين من اللغة العربية الفصحى، ولكن باسم رجل عربي، بل باسم رئيس مجمع اللغة العربية، فدعا إلى (تمصير) اللغة، وذكر أن الإعراب ليس من أصول اللغة، بل هو أمر طرأ عليها بعد مجيء الإسلام، لئلا يحدث تغيير وتحريف في أواخر الكلمات، ومدح اللهجة العامية، وخلع عليها من عبارات الثناء الشيء الكثير، وذكر أن اللهجة العامية لا ينقصها إلا أداة التعريف!

وقد تناولت صيحات المستشرقين والمحسوبين على العرب -على حد سواء- الدعوة في إصلاح الألفاظ والتراكيب والأساليب اللغوية، وإصلاح قواعد النحو والصرف والبلاغة!

أما في الهند، فقد حدثت محاولات كثيرة لإيقاف انتشار لغة القرآن، والحيلولة بين المسلمين وبين اللغة العربية في شبه القارة الهندية، وقاد هذه الحملة (غاندي) الذي قال:

((إن من الخير لسكان الهند ألّا يلجؤوا إلى اللغة الأردية لأنها تكتب بأحرف القرآن: وهو كتاب المسلمين -وحدهم- وعلينا أن نختار اللغة المحفوظة عن

الأمهات فقط، وهي اللغة السنسكريتية))[1].

وفي مدينة (كلكتا)، شكّل الإنجليز كلية (فورت) في سنة ١٨٠٠م، وعملت منذ أيامها الأولى في محاربة اللغة العربية، في الوقت الذي ترك المجال فسيحاً واسعاً أمام اللغة الإنجليزية، لتكون اللغة الأولى بين المسلمين والهندوس.

أما دولة باكستان حين تكوّنت عام ١٩٤٨م، فقد ظهر فيها من يدعو إلى الاهتمام باللغة العربية، وإعادة الحروف العربية إلى اللغة (البنغالية). وتشكّلت لهذا الغرض جمعية أطلق عليها اسم: (جمعية حروف القرآن الثقافية). على أن أعداء اللغة العربية ظلّوا يبذلون جهوداً جهيدة في محاربة لغتنا، فدَعوا إلى كتابة اللغة الأوردية بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية.

ولقد قام كثير من دعاة الإسلام وعلمائه بالدعوة إلى اللغة العربية في الهند، وإعادتها إلى مكانها السامي المرموق، فكانت النتيجة: أن صدر قرار من المؤتمر الإسلامي في كراتشي، اتّخذ فيه العربية لغة دولية في العالم الإسلامي.

على أن مؤامراتٍ كبيرة خطيرة على الإسلام والمسلمين تمّت في تركيا حين أقصى الحكام الحروف العربية، وصارت اللغة التركية تكتب بالحروف اللاتينية، وقام بتلك المؤامرة الخطيرة: (مصطفى كمال اتاتورك)، ووقعت الحرب على اللغة العربية بين ١٩٠٩-١٩١٨م، عندما سيطرت على الحكم (جمعية الاتحاد والترقي) التي كانت قد ارتبطت بالماسونية والصهيونية ارتباطاً وثيقاً. وقد ألغيت اللغة العربية من تركيا سنة ١٩٢٣م. وليس هذا وحده، بل أجريت تصفية اللغة التركية من الكلمات العربية، فعقدت المؤتمرات لهذا الغرض،

---

(١) الفصحى لغة القرآن. للأستاذ أنور الجندي. ص١٠٦. الموسوعة الإسلامية العربية/ ١٠.

وأخرجوا من اللغة التركية ١٣٦٥٠ كلمة عربية، وأحلّوا محلّها كلماتٍ تركية، واعتبروا تلك الكلمات العربية كلماتٍ أجنبية.

وهكذا فقدَ الأتراك تراثاً ضخماً شادهُ الآباء والأجداد في أكثر من ١٢٠٠ سنة، حين أقدم (مصطفى كمال اتاتورك) على هذه الفعلة الشنعاء النكراء!

وكانت هذه الهجمات على اللغة العربية متفاوتة من بلد إلى آخر، لاختلاف ميادين الصراع، وتفاوت الأسلحة المستخدمة: ففي الشرق استطاعت اللغة العربية أن تصمد، لكنها لم تتخلّص من عقابيل الغزو الفكري. أما في الغرب، فكانت جهود المستعمرِ كبيرةً جداً في محاربة العربية. وبذلك استطاع أن يعزل المغرب الإسلامي عن ماضيه حين عزله عن لغته العربية التي دونت بها عقيدته وشريعته وثقافته وحضارته.

إن الأمة التي تُبتلى باحتلال أرضها تستطيع أن تطرد المحتل بعد فترة قصيرة أو مدةٌ طويلة، لكنها حين تُمتحن بسرقة لغتها تضيع، لأن ذاتيتها إذ ذاك قد ضاعت، ولا تستطيع أن ترتبط بمقوماتها وحضارتها، فتظل متأثرة بأفكار المستعمر الذي فرضَ لغته حتى بعد إخراجه من البلاد، تتزوّد من مكتبته وثقافته ونمط حياته وفكره وأدبه! وهكذا يتحول ولاء المسلم إلى عدوّه الذي كان يحاربه بالأمس من غير أن يشعر.

وإذا كان غزو لغتنا العربية عنيفًا جداً في تونس والمغرب، فإن عنف ذلك الغزو، وضراوة تلك المعارك كانت في الجزائر أشدّ، ولم يتأثر قطر من الأقطار العربية بهذا الغزوِ مثلما تأثّر هذا البلد الجريح الذي بلغت المعارك ذروتها فيه.

ومن أساليب هذا الغزو على لغتنا، تبديل الخط العربي، وتطوير البلاغة العربية وقواعد الصرف على أسلوبهم هم، محاولين أن يطبّقوا علم اللغات

الأوروبية على اللغة العربية! وهذا لا يمكن أن يكون لاختلاف تاريخ كلٍ منهما، إذ اللغات الأوروبية مشتقة من اللغات اللاتينية وغيرها. وما يردّده مَن تأثّرَ بالغزو الفكري من أن: (من حقّنا أن نتصرّف بلغتنا لأنها ملك لنا) قول خطير ومردود بالنسبة للغة العربية. وربما كان فيه شيء من الصحة للغات الأوروبيّة، ذلك لأن العربية هي لغة المسلمين جميعاً، هي لغة عقيدتهم وفكرهم وثقافتهم. وقد كتب بالحروف العربية كثير من شعوب العالم، فكتبت بها اللغات: الفارسية والكردية والأفغانية والبربرية والمغولية والسودانية، كما كتبت بها اللغة التركية قبل عام ١٩٢٦م.

وبعد

فإن نتائج هذه الدعوات في إصلاح قواعد اللغة في النحو والصرف واضحة بيّنة لكل متأمّل، إذ ستحدث لغة بعيدة عن لغة القرآن والحديث والشعر العربي والنثر. وإذا كانت أمتنا قد كونت ثقافة عملاقة في قرون متطاولة، فإن التخلي عن قواعد لغتنا معناه: التخلي عن ذلك التراث العملاق الذي ساهم في إنشائه وإرساء قواعده عشرات الملايين من أجدادنا.

على أن العقيدة والشريعة الإسلامية –فوق ذلك– فُهمتا وطُبّقتا وعُمل بهما على وفقِ ما فهمه الناس من لغة العرب، فإن القرآن الحكيم لا يُفهم فهماً دقيقاً إلا باللغة العربية، وكذلك الحديث الشريف، فإن القول بإصلاح اللغة المزعوم يؤدي –حتماً– إلى ضياع العقيدة والشريعة الإسلامية معاً!

إنها مؤامرة خطيرة أرادت أن تنال من لغتنا، ففضحها الله على رؤوس الأشهاد، وردّ كيدهم إلى نحورهم، وكانوا كما قال الشاعر:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنهـــا فلمْ يَضِرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

الأدب العربي أمام الغزو الفكري

أدبُ أيَّة أمّةٍ كانت من الأمم: هو نتاج فكرها وعواطفها ودينها وبيئتها، ومزاجها النفسي، وتقاليدها، ووجهة نظرها في الحياة. ولم يتشكل الأدب العربي بشكله الحقيقي إلا في الإسلام. ولا يعارض هذا وجود الشعر القديم قبل الإسلام، ووجود سجع الكهّان، ذلك لأنّ الشعر القديم وسجع الكهّان لا يُشكّلان صورة واضحة للأدب العربي، لا بمعالمه الأصيلة، ولا بمفهومه الفنيّ.

لقد استمدّ الأدب العربيّ أصوله من الفكرِ الإسلاميّ، والالتزام بالقيم الخلقية، ولكنه تأثّر -فيما بعد- بالفلسفة اليونانية، والنزعات الإلحاديّة، والإباحية الوثنيّة، نجد ذلك في الخمريات والغزل المكشوف. غير أنّ هذا التأثير كان شذوذاً وانحرافًا، فما هي إلا فترة قصيرة حتى عاد الشعر إلى طابعه الحقيقي، بعد ذلك الانحراف الذي مثّلَه (أبو نؤاس) و(بشار بن برد) وغيرهما.

ولقد تعرّض الأدب العربي إلى مؤامرات كثيرة أرادت إخراجه عن خصائصه، وحصره في دائرة ضيقة، هي دائرة الغزل والمجون والتحلل والميوعة، فقد قام بعض أعداء الإسلام بنشر أشعار منسوبة إلى أسماء لامعة، فيها من الانحلال والرخاوة ما فيها، كما فعلوا في ترجمة (رباعيات الخيام)، فإن كاتبها هو: (فيتز جرالد) الذي كتبها بالإنجليزية، أو ترجمها عن مصادر فارسية مجهولة، ونسبها إلى (عمر الخيام)[1]. وأثمرت هذه المحاولة ثمرات خبيثة، إذ

---

(١) اهتمّ المستعمرون بـ(عمر الخيام): ففتحت الأندية الكثيرة التي حملت اسمه في بريطانيا، ووضعت طوابع بريدية باسمه -أيضاً- ودوّى صيته وذاع في كل مكان، خاصة في بريطانيا بهذه القصائد المنسوبة إليه، ذلك لأنّ هذه القصائد تصطدم أولاً بعقيدة الإسلام، وتزرع الشكوك والريب في قلوب المسلمين. وهذه علة احتفاء المستعمرين بها، وترجمتها إلى لغات كثيرة!

وجد في مجتمعنا من يدعو إلى (لا أخلاقية الأدب) أو (الأدب المكشوف) متأثراً بالأدب الغربي. وهذه الدعوات إلى الأدب الماجن تترك –بلا ريب– آثاراً نفسية كبيرة الأثر في الشباب المسلم!

ومن آثار الغزو الفكري في الأدب، زعم الزاعمين: أن الأدب ليس له أي ارتباط كان بالإسلام، وهم يريدون إبعاد الأدب العربي عن الروح الإسلامية!

إنّ هذه المقولة نبتت في بلاد الغرب، وتبنّاها عدد كبير من كتّابه. والسبب الذي جرَّأ هؤلاء على هذه المقولة: ما تعارفوا عليه من أن النصرانية التي أصابها ما أصابها من تحريف، ليست بنظام حياة يستطيع أن ينجح في حكم الناس، وبذلك يختلف الاختلاف كله عن الإسلام الذي هو منهج حياة صالح للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان، وهو دين ينظّم شؤون النّاس الدنيوية، وهو منهج حياة كامل، والأدب جزء منه، وبذلك لا ينفصل الأدب العربي عن الإسلام، لأنه جزء منه. وهو بهذا يختلف مع المفهوم الغربي الذي يملك الأديب فيه الاستقلالية التامة من غير أن يرتبط بأيّ رباط كان. فهذا اللون من الأدب المسمى بـ(الأدب المكشوف) غريب عن مجتمعنا، معارض للذوق العربي وما تعارف عليه الناس من أعراف حسنة.

وإذا كان الأدب العربي في بعض فترات التاريخ قد علقت به أشياء مما يُسمّى بـ(الأدب المكشوف): فإنّ سبب ذلك ما تعرّض له أدبنا العربي من غزو شعوبيّ يشبهُ الغزو الذي يتعرّض له الآن على أيدي من تأثّر بالثقافات الغربية، ونمط العيش الغربيّ، فلا بد للأديب أن يكون غرضه شريفًا. قال بعض كتّابنا الفضلاء:

((إنّ الشعر الرفيع لا يُقاس بحسن الديباجة وبراعة المعنى فحسب، ولكن

بشرف الغرض))[1].

ومن أساليب الغزو الفكري لأدبنا العربي، محاولة إخراجه عن خصائصه ومقوّماته: وذلك بأن تكون موازين النقد الأدبيّ الغربي التي نقلوها عن (سانت بيف) و(بوردنير) وغيرهما، موازين للأدب العربيّ! ولا يخفى على المتأمل أنّ هذين الناقدين وأمثالهما قد نشؤوا في مجتمع ماديّ، فصاروا يولون اهتمامهم – كله– إلى العصر والبيئة، من غير أن يقيموا لقضايا العقيدة والروح والقيم والأديان أيَّ اهتمام كان.

ومن هذا المنطلق عمل قسم من الكُتّاب الذين تأثروا بالغزوِ الفكري على أن يجرّدوا الأدب العربي من الفكر الإسلامي والروح الإسلامية، وأن يوجِدوا انفصاماً بين دراسة الأدب العربيّ ودراسة القرآن الكريم والعقائد والمُثُل، فيكون الأدب العربي علماً مستقلاً بنفسه كعلمِ (الهندسة) و(الجبرِ) و(المثلثات) و(الحيوان) و(الكيمياء).

ومن هذا الغزو الماكر –أيضاً– العناية بأسلوب الشكّ، وإقليميّة الأدب، وقضية الرموز.

وإذا كان للأدب الغربي مناهجه الخاصة، ومدارسه المعروفة، ونظرياته المتعدّدة، فإنّ للأدب العربي –أيضاً– مناهجه الخاصة النابعة من تراثنا وعقيدتنا وشريعتنا وقيمنا وأخلاقنا، فمن غير الصواب أن نكون تابعين لمدارس تختلف كل الاختلاف عن طبيعة أمتنا الإسلاميّة.

---

(١) الشعوبية في الأدب العربي. للأستاذ أنور الجندي. ص١٥٢. الناشر: دار الاعتصام. طبع سنة ١٩٧٧م.

ومما كان له أثر كبير في إضعاف قيمنا وتوهين مثلنا، ما قام به مَن ترجموا الأدب الغربي إلى اللغة العربية، ففي فترة ليست بالطويلة ترجم عدد من الكتّاب قصصاً خليعة ماجنة عن اللغة الفرنسية، تجاوزت عشرات الآلاف من القصص الخليعة الداعرة الفاضحة. وكانت الصحف والمجلات تتلقّف هذه القصص، فتنشرها وتطبع منها الكثير! أما الأسلوب الذي كُتبت به هذه القصص، فكان شبيهاً بالأسلوب العاميّ، وبذلك أثّرت هذه القصص على اللغة العربية السليمة -أيضاً- فوق تأثيرها على سلوك الأمة وأخلاقها!

لقد كانت الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية سلاحاً فتّاكاً اتّخذه أعداء الإسلام للنّيلِ من ديننا ولغتنا. وكانت بداية الترجمة بداية صحيحة سليمة، لكنّها انحرفت -بعد ذلك- حين سيطر المستعمرون على بلاد المسلمين، إذ لم تكن للناس الحرية الكاملة في ترجمة ما يريدون ترجمته!

كانت حركة الترجمة سليمةً في أول الأمر، إذ عُنيت بترجمة العلوم والمعارف والفنون التي يحتاجها العالم الإسلاميّ، كالطبّ والهندسة والجغرافيا والقانون المدنيّ والرياضة والصحة والحيوان. لكن هذه الحركة لم يُكتب لها أن تسير بهذا الخطّ السليم إلا فترة قصيرة من الزّمن، إذ دخل إلى ميدان الترجمة عدد من الكتاب النصارى في سورية، فانحرفوا عن ذلك المنهج السليم، واتّجهوا إلى ترجمة المسرحيات والقصص، وكان في مقدّمة هؤلاء: (نجيب الحداد) و(طانيوس عبده) و(إلياس فياض)، وغيرهم.

ولم يهتمّ هؤلاء المترجمون بما يفيد الأمة، بل اهتمّوا بما يرضي رغبات الجمهور من القراء، وذلك بتسليتهم، لذلك اتّجهوا هذا الاتّجاه المنحرف، فترجموا أعداداً كبيرة من القصص الجنسية ترجمةً هزيلة مشوّهة مريضة، وبلغَ من

ضعف هؤلاء في الترجمة أنهم كانوا حين تستعصي عليهم ترجمة عبارات مشهورة معروفة، يبقونها كما وجدوها في اللغة الفرنسية. وقد أكثر هؤلاء من الترجمة حتى أُحصيَ لـ(طانيوس عبده) -وحده- أكثر من ستمئة قصة ورواية من هذا النوع[1].

وكانت أكثر الكتب التي تترجم في فترة ما بين الحربين، هي القصة والملحمة الإغريقية. أما في الفترات الأخيرة، فقد ترجمت المذاهب والفلسفات. وكان لهذا -أيضاً- أثر سيّء جداً في العالم الإسلامي كله.

إنّ هذه الحقيقة أقرّ بها كثير ممّن أكلَ الحقدُ الأسودُ قلوبهم من المستشرقين، فقال (مرجليوث):

((إنّ أكثرَ ما تُرجمَ إلى العربيّة من تأليف أهل الغرب، إنّما هي روايات مقصدها اللّهو دون المنفعة، وقلّ ما يوجد في أعمدتها من أسماء جديدة موضوعها التاريخ أو الفلسفة أو فن من الفنون))[2].

ولم تقف الترجمة عند هذا الحدّ، بل ترجمت قصص تنال من تاريخنا نيلاً دنيئاً، وتشوّه الوقائع الصحيحة، وتحرّف الكلم عن مواضعه!

ولقد اتّجهت الترجمة في أيّامنا هذه اتّجاهاً أكثر خطورة، إذ صارت الكتب الغربية تُترجم إلى اللغة العربية، وهي تمثِّلُ الغرب في انحلاله وتسيّبه من القيم العالية والمبادئ السامية، وتُصوِّر الكُتّاب المنحرفين عن جادة الصّواب الذين تشبّعوا بالإلحاد والاستهتار، في صورة الصناديد الأبطال!

---

(١) الفصحى لغة القرآن. ص٢٦٩.

(٢) الفصحى لغة القرآن. ص٢٦٩.

ومن أواخر ذلك الغزو الذي بذلت فيه الصهيونية جهوداً جهيدة، وأفرغ الاستعمار نشاطه فيه، ما نسمعه من شعار (عالميّة الأدب): وهي مؤامرة خطيرة، ترمي إلى عزل أمتنا عن قيمها، وعزل الأدب العربيّ عن جذوره. وبهذا يفقد الأدب العربي طابعه الخاص، وينصهر في بوتقة غيره، فتكون المناهج الغربية حاكمةً عليه في الشّعر والنثر والنّقد والأسلوب!

تاريخنا أمام الغزوِ الفكريّ

تعرّض تاريخنا الإسلامي لهجوم عنيف على مستويات كثيرة؛ ففسّر قسم من المستشرقين تاريخنا على أنّه حروب ودماء ليسَ إلّا، وأبعَدوا في الوقت نفسه الرّوح الإسلاميّة –روح الهداية– التي كانت تريد أن تخلّص النّاس من حياة البؤسِ والشّقاء، وتنقلهم إلى حياة السعادة والرّفاه!

ومن ناحية أخرى، فقد كُتب تاريخنا الإسلاميّ بأسلوب يجعل الطالب يحفظ نتفًا منه؛ كسيرة سيّدنا رسول اللهﷺ، لكنّ ذلك الأسلوب الذي كُتبت به السيرة وغيرها لا يُعنى بتحليل الأحداث التاريخيّة، وتبيان أهميّة العقيدة الإسلاميّة التي كانت تدفع المسلم وتحضّه على الإقدام لا الإحجام.

ولم يترك أعداء الإسلام من وسيلة إلّا اتّبعوها لتشويهِ تاريخنا ابتداءً من حياة رسول اللهﷺ قبل البعثة، فقد شكّكوا في دعوتهِ وفي الوحي والقرآن، وطعنوا في خلفاء المسلمين وقادتهم. يقول البروفيسور (مونتغمري واط) في كتابه (محمد في مكة) –باللغة الإنجليزيّة– ما مؤدّاه:

((إنّ محمداًﷺ كان يذهب إلى غار حراء لا ليتحنّث (يتعبّد) كما هو معروف، لكن للاصطياف! معلّلاً ذلك بأنّ أغنياء مكّة كانوا يذهبون إلى الطائف هرباً من حرّها. أمّا هو، فلم يكن في وسعهِ مجاراتهم لفقره، ولذلك كان يذهب إلى غار حراء ليصطاف))!![1].

وقد عمل الغربيون على إخضاع تاريخنا الإسلاميّ للمناهج التي يدرسون

---

(١) نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي. للدكتور عبد الرحمن على الحجي. ص٣٧. الطبعة الثانية. دار القلم ١٣٩٥هـ.

في ضوئها التاريخ الغربي، من غير أن ينظروا إلى الفروق الكبيرة بين التاريخين: من حيث الظروف والمقوّمات والطّبيعة، ففسّروا تاريخنا تفسيراً ماديّا! وتاريخنا الإسلاميّ النابع من عقيدتنا لا يُفسّرُ تفسيراً ماديّاً، إذ إنّه تعاملَ مع الإنسان، وللإنسان مشاعرهُ وأحاسيسه، وفي حياته ما هو ماديّ وما هو معنويّ، فلا يُمكن أن نحصره في هذه الدائرة الضيقة.

وكذلك الأمر في سيرة رسول اللهﷺ؛ فقد ظهرت كتابات تُفسّر سيرةَ رسول اللهﷺ تفسيراً مادياً كذلك، وبرزت هذه الكتابات إلى الوجود قبل أكثر من خمسين سنة، وغرضها أن تجعل من رسول اللهﷺ رجلاً عبقرياً كسائر العباقرة، أو تجعله بطل أمّة، هادفةً من وراء ذلك إلى تجريدهِ صلوات الله وسلامه عليه من صفة النبوّة.

إنّ تفسير الغربيّين للتاريخ تفسير ماديّ، ينطبق على ما فعلوه –هم– إذ فرضوا عقائدهم ومبادئهم بالقوّة، وقاسوا تاريخنا الإسلاميّ على ما فعلوه هُم. يقول الأستاذ (تريتون) في كتابه: (الإسلام عقيدة وعبادة):

((إذا صحّ في العقول أنّ التفسير الماديّ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعضِ الظواهر التاريخيّة الكبرى، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فإنّ هذا التفسير الماديّ يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يُعلّلَ وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم، وقيام حضارتهم، واتّساع رقعتهم، وثبات أقدامهم، فلمَ يبقَ أمام المؤرّخين إلا أن ينظروا في العلّة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فيرى أنها تقعُ في هذا الشيء الجديد: ألا وهو الإسلام))[1].

---

(١) شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي. للأستاذ أنور الجندي. ص٢٦١. المكتب الإسلامي ١٣٩٨هـ.

وتعرّض تاريخنا لهجوم عنيف، حين عملت الصهيونيّة في تفسيرها له على أن توجِد انفصاماً بين الإسلام وحنيفيّة سيدنا إبراهيم، لتقطع المسلمين عن ماضيهم، وتبرز مقولاتهم التي سفّهها القرآن الكريم، إذ زعموا أنّهم شعب الله المُختار، واستهدفت من كتاباتها بهذا الأمر –أيضاً– الحيلولة دون قيام وحدةٍ فكريّة بين المسلمين!

كما أن تاريخنا الإسلامي تعرض لهجمة أخرى: وذلك بتجديد الكتابة عن الحركات الباطنية: كالقرامطة والإسماعيلية، ووصفها بحركات تحرير ورفع مظالم. وقد أوصى مؤتمر (بلتيمور) الذي عقد تحت إشراف الصهيونية في أمريكا بذلك عام ١٩٤٢م.

وتعرّض تاريخنا على أيدي مؤرّخين غربيّين لتفسيره تفسيراً عنصرياً: كما فعل (فان فلوتن) و(ولهاوزن) في كتابيهما: (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات) و(الدولة العربية وسقوطها). وهناك من الغربيّين من فسّر تاريخنا تفسيراً قبليّاً: كما فعل (دوزي) في كتابه: (تاريخ مسلمي الأندلس).

وممّا وقع فيه الغربيّون من أخطاء وحاولوا إشاعتها ونشرها في العالم الإسلامي خاصّة، عدم تفرقتهم بين الإسلام وتاريخه. ولا ريب أنّ هنالكَ فارقاً بين تعاليم الإسلام وتاريخه، ذلك لأنّ الإسلام نظام ثابت، لكن تاريخه لم يسر في كلّ العصور على شكلٍ واحد، فإن حكّامهُ كانوا متفاوتين قوةً وضعفًا، وقرباً وبُعداً من تطبيق شريعة الإسلام: فمنهم من أصاب، ومنهم من أخطأ. وهذه الأخطاء التي وقع فيها قسم من الحكّام لا يتحمّلها الإسلام، بل يتحمّلها من صدرَ عنه الخطأ. وقد وقع كثير من المستشرقين في هذا الخلط، إذ لم يفرّقوا بين الإسلام وتاريخه، ومن هؤلاء: (مارجوليوث) و(ماكدونالد) و(موير).

إنّ التاريخ الإسلاميّ ليس بتاريخ فكر وأوضاع اجتماعيّة وسياسيّة فقط، ولكنّه –قبل ذلك– تاريخ عقيدة نظّمت شؤون النّاس الدينيّة والدنيويّة وهذه العقيدة تتميّز بخصائص تفقدها العقائد الأخرى، ومن هنا يتّضح جليّاً الخطأ الكبير الذي وقع فيه الغربيّون حين يتحدّثون عن تاريخنا الذي فَصلوه عن الإسلام. وإذا وُجدَ منهم من يولي العقيدة بعض الاهتمام، فإنّه ينظر إلى الإسلام كنظرته إلى عقيدة أوروبا ومفاهيمها وإيحاءاتها!

وقد وقف أعداء الإسلام من التاريخ الإسلاميّ هذا الموقف من تحريف الكلم عن مواضعه والتشويهِ والتشكيك، لأنّ دراسة تاريخنا على حقيقته، بنصاعته ونضارته يجعل المسلم يعتزّ بتاريخه ويُعجَب بهِ وتدفعه هذه الدراسة إلى أن يقتدي المسلم بآبائه وأجداده، وأن يكون ذا عقليّة راجحة، ونفسيّة إسلاميّة تعتزّ بدينها لا ترضى به بديلاً، وأن يتمسّك المسلم بحقيقة العقيدة التي تمسّكوا بها، فبنوا حضارةً عملاقة، ومدنية فاضلة، أدهشت الدنيا بنبلها وروعتها وبهائها. وعند ذاك يقيم المسلم وجوده، ويسعى لرفع كلمة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) في الدنيا كلها، وهل يخشى الغرب من شيء خشيته من إقامة حكم الله في الأرض؟!

وهكذا رأينا من المستعمرين الحاقدين من يضع خطّة يحاول فيها الانحراف في دراسة تاريخنا، إذ إنّ دراسة تاريخنا بصورته الصحيحة، يجعل المسلم يربط بين الدين والدنيا، لذلك عمل أعداءُ الإسلام على ربط المسلم بمعتقدات غير إسلاميّة وإذاعة أنّ الغرب لم يتقدّم إلا بعد أن حصلَ الفصلُ بين الدّين والدّولة!

العلمانيّة وفصل الدين عن الدّولة

العلمانية: صناعة يهودية، أوجدها اليهود لتقضي على نفوذ الكنيسة في أوروبا، وأول ثورة نجح بها اليهود في هذا الموضوع هي الثورة الفرنسية، ثم جاءت –بعد ذلك– ثورات وثورات في أقطار أوروبيّة كثيرة، تمكنت أن تقوم بفصل الدين عن الدولة فصلاً تاماً. وبدأ التعليم العلماني في الدول الغربية بعد تلك الخطوات، وفقدت الكنيسة مكانتها التي كانت تتبوؤها في التربية والتعليم. وبعد هذه العمليات التي حطّمت كثيراً من الحواجز والقيود، صار من حق اليهود أن يتمتعوا بحق المواطنة في المجتمعات الغربية، بعد أن حُرموا من ذلك مدّة طويلة من الزمن. ولهذا جاء القرار الأول لأول حكومة علمانية في أوروبا –وهي الجمعية الوطنية الفرنسية– يعدّ اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم حقوق المواطن كلها، وعليهم واجباتهم، وصدر هذا القرار في ١٧/ ٩/ ١٧٧١م.

كان مخطط (الماسونية) في هذا دقيقاً، فقد استغلت نواحي التشويه الديني في أوروبا فوجّهت سهامها إلى الدين نفسه، وحملت شعار: (دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، وقد ضيقت الخناق في هذا على الكنيسة وجعلت نفوذها في نطاق ضيّق جداً لا يتجاوز جدران الكنائس، فاكتفت بالصلوات والطقوس والركوع في الهيكل، بينما سيطرت السلطة الحاكمة على مرافق الحياة كلها: بقوانينها الوضعية، ونظامها المدنيّ. وعبّرت الثورة الفرنسية عن موقفها من الكنائس حين رفعت شعار: (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسّيس)!

هكذا عُرف الفصل بين الدّين والدّولة في أمم الغرب. لقد حدث هذا، لأنّ رجال الدّين عجزوا عن تقديم الحلول الصحيحة السليمة للمشكلات التي كان

يعاني منها المجتمع آنذاك، ووقفوا موقفاً مزرياً حين آزروا الإقطاع والأمراء! لكنّ الإسلام لا يعرف شيئاً من هذا الفصل المزعوم، والقرآن الكريم يدعو الناس إلى الإيمان بأحكامه الدينية والدنيوية، ويعدّ الإيمان ببعض القرآن والكفر ببعضه الآخر كفراً، وأن القرآن الذي أنزله الله، أنزله ليحكم به الناس، لا ليتبرّكوا به أو يتغنّوا فحسب: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[1].

والإسلام يُنظّم شؤون الفرد والأسرة والدولة، بل ينظم شؤون المجتمعات كلها:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[3].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[4].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[5].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[6].

---

(١) المائدة ٤٩.

(٢) الأنبياء ١٠٧.

(٣) المائدة ٤٨.

(٤) المائدة ٤٤.

(٥) المائدة ٤٥.

(٦) المائدة ٤٧

ولقد كان رسول الله –صلوات الله وسلامه عليه– رسولاً نبيّاً، وكان –في الوقت نفسه– رئيس الدولة، ذلك لأنّ الإسلام يُمثّل عناصرَ ثلاثة هي:

١– العقيدة.

٢– الشريعة.

٣– الأخلاق.

على أن الدولة في نظر الإسلام جزء من الإسلام نفسه، إذ لا يقوم الدين إلا بها. ولقد قامت قيامة الكنيسة حين تفتحت عقلية قسم من الأوروبيّين، فقاموا باكتشافات علمية، تاركين تقليد آبائهم وأجدادهم جانباً، لكن هذه الاكتشافات صارت وبالاً عليهم، إذ كلّفتهم حياتهم: فقد كفّرتهم الكنيسة، واستحلّت دماءهم وأموالهم، وأنشأت محاكم التفتيش، ((ويقدّر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلاثمئة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفًا أحياء، كان منهم العالم الطبيعي المعروف (برونو)، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدّها قوله بتعدّد العوالم، وحكمت عليه بالقتل، واقترحت بأن لا تُراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يُحرق حيّاً، وكذلك كان. وهكذا عوقب العالم الطبيعي (غاليلو) بالقتل، لأنه كان يؤمن بدوران الأرض حول الشمس))[1].

فإذا كانت الكنيسة الأوروبيّة قد اضطهدت العلماء، فقتلت قسماً منهم، وعذّبت آخرين، وألقت غيرهم في غياهب السجون، فإن الإسلام شجّع العلم والعلماء، بل جعل طلب العلم فريضةً على كل مسلم. يقول العلامة (مسمر):

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. للأستاذ العلامة: أبو الحسن الندوي. ص١٩٢. الطبعة الحادية عشرة.

((إنّ الغربي لا يصير عالماً إلا إذا ترك دينه، بخلاف المسلم، فإنّه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلاً))[1].

وهكذا فإنّ التاريخ الإسلامي لا يعرف الفصل بين الدين والدولة، والتي تبنت دعوة العلمانية في بلاد المسلمين هي (جمعية الاتحاد والتّرقي)، ولا يخفى على المتأمل أن قسماً من قيادات هذا الحزب كانت يهوديّة.

ومن الأفكار التي كان يروّجها دعاة (العلمانية) أن هذه الكلمة تعني: الاعتماد في العمل والبحث على الحقائق التي تدركها الحواسّ، ونبذ ما سوى ذلك، وأن يتحرّر الناس تحرّراً تاماً من العقائد الغيبيّة التي هي في الفكر الأوروبيّ ضرب من الأوهام والضّلالات، ذلك لأنّ تلك الأفكار لا توصل إلى أحكام صحيحة ينتفع منها المجتمع. وقد فعل دعاة العلمانية ذلك، لأن الأساطير والأوهام والخرافات كانت قد انتشرت انتشاراً واسعاً في المجتمع الأوروبيّ، فأراد دعاة العلمانية أن يقفوا أمام تلك الأساطير والخرافات، لكنهم أخفقوا في ذلك، فصاروا يتّهمون الدين بنشر ذلك!

والحقيقة التي لا ريب فيها أن الأديان السماويّة -كلها- جاءت بالتوحيد، لتنقذ الناس من الأمراض الفتاكة القاتلة التي تصيب البشرية حين تَزْوَرُّ وتنحرف عن طريق التوحيد الصحيح. والفكر البشريّ هو الذي قام بإيجاد الأساطير والأوهام والخرافات، ووقف الدين الإلهيّ في عصور الدنيا كلّها يحاربُ ذلك.

وإذا كان هذا التعريف للعلمانية ينطبق على ما كان عليه المجتمع الأوروبيّ

---

(١) شبهات التغريب ص٣٠.

آنذاك، فإنه لا ينطبق على مذاهب أو مناهج أخرى، وهو يتباين تبايناً كليّاً عن نظام الإسلام الذي دعا إلى العلم ونبذ الأوهام والضلالات، معتمداً في منهجه على الوحي والعقل، ولا يصطدم وفطرة الله التي فطر الناس عليها. فلا يعدّ الإسلام منهجاً عقليّاً فقط، ولا نظاماً روحيّاً فحسب، بل هو منهج متكامل يجمع بينهما، ويترك لكل منهما مجاله الرحيب. وكان موقف الإسلام حاسماً في ذلك، فلم يهادن شيئاً من تلك الأساطير، ولم يسكت عن شيء من تلك الأوهام، بل وقف موقفًا حازماً، كان من نتيجته أن تحمّل المسلمون من جرّاء تلك المواقف ما تحمّلوا من عنت ومشقة وعذاب، لكنهم فعلوا ذلك، ووقفوا هذا الموقف الجريء، لأن الإسلام دعا إليه، وآيات القرآن الكريم كثيرة في هذا الأمر، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ.

أما العلمانية، فنظرتها قاصرة، لأنها تقف عند حدود المحسوس فحسب، وذلك جانب يسير من جوانب العلم، وليس العلم كله. فاشتقاق الكلمة إذن خطأ محض، ذلك لأنّ العلم لا يقبل بالمنهج الناقص.

هذا ما ذهب إليه كثير من الكتّاب في تفسير كلمة (العلمانية)، غير أننا إذا نظرنا نظرةً دقيقة إلى لفظ (العلمانية)، نرى أنها ترجمة لكلمة SECUIAR وهي تعني (اللّادينيّة) في اللغات الأوروبيّة، وقد انتقلت هذه الكلمة من المجتمعات الغربية إلى المجتمعات الإسلامية، بعد أن سيطر المستعمرون على ديار المسلمين، ودخلت الفلسفات المادية الإلحادية إلى ديارنا الإسلامية، وكان الصراع عنيفاً قويّاً بين القوانين الإسلامية وبين القوانين الغربية، فقد كان المستعمرون يبذلون جهوداً جهيدة في إحلال الأنظمة الوضعية الأرضية مكان القوانين الإسلاميّة، فجاءت قضية الفصل بين الدين والدولة، لتكون خطوةً أولى للوصول إلى

الهدف الحقيقي من وراء هذه الدّعوة، وهو أن يتخلّى المسلم عن دينه وقيمه وأخلاقه وفكره وتراثه، وأن يجعل المقاييس الغربيّة مقاييس له في كلّ شيء. وقد رُفعَ هذا الشعار –شعار العلمانية– لتكون زحزحة المسلمين عن دينهم بهدوء، من غير أن تحرّك مشاعر المسلمين وأحاسيسهم أو تصطدم بها!

وإذا كانت بدعة فصل الدين عن الدولة قد جاءت بها النصرانية المحرَّفة، ولم تُعرف هذه البدعة إلا في العصور المتأخرة، فإن هذا الفصل لم يُطبّق في حقيقة الأمر إلا في العصور المتأخرة.

ولقد بقي كثير من (البابوات) يجمعون بين السلطتين الدينية والسياسية، كما نجد ذلك في الإمبراطوريّتينِ الشرقية والغربية. وفي الدولة الرومانية كان الأباطرة يتولون العرش الإمبراطوري بعد تلك الطقوس الدينية التي يقوم بها الرهبان، ويتولى البابا تتويج الإمبراطور، وقد أراد الملوك التخلص من سلطان (رجال الدين) فنادوا بنظرية (التفويض الإلهي) التي تقول بأنهم يستمدون سلطانهم من الله مباشرة لا من البابوات. وعندما قامت (الثورة الفرنسيّة) نقلت هذا الحق الإلهي الذي كان للملوك إلى الحق الإلهي للشعوب!

على أن العلمانية في عصرنا هذا صارت تلاقي مقاومة عنيفة في ديار الغرب التي نشأت وترعرعت فيها، فصارت الكنائس هي التي تتولى مقارعتها ومنازلتها، يدلنا على ذلك ما فعلته الكنائس حين اقتحمت دوائر الدولة، ودخلت المعارك السياسية، وأنشأت الأحزاب الديمقراطية النصرانية، كي تمارس سياسة الدولة، من غير أن تغضبَ (المسيحية) على ذلك، ومن غير أن يحدث عداء بين الدولة والكنيسة، بل تكون الدولة في خدمة الكنيسة! وهكذا نجد أن العلمانية في دول الغرب لن تشكّل خطراً على النصرانية بعد اليوم!

فإذا كانت العلمانية قد أخفقت هذا الإخفاق الذريع في دول الغرب –وفيها نبتت وترعرعت– فكيفَ يُكتب لها النجاح في ديارٍ يعدّ الدين جزءًا مهماً في تكوينها، وهي لا تستطيع النجاح إذا كان الدين يقِظاً في أي بلد كان!

إن الفكرَ العلماني خالٍ من ميزان يزنُ به الإنسانُ القيمَ الخلقية، لذلك نجد الأفراد في الأمة الواحدة قد اتّخذ كل واحد منهم ميزاناً خاصاً به يتباين عن ميزان غيره. وإذا علمنا أن مطالب الناس في تغيّر حسب الزمان والمكان، أدْركنا أنّ هذه الموازين تظل متغيرة لأنها موازين من صنع البشر!

لقد سلك الاستعمار الأوروبي وغيره أساليب كثيرة في محاربة الإسلام، ومن ذلك: ما كان يلاقيه التعليم (اللّادينيّ) من تشجيع كبير، وإغداق المرتبات الكبيرة على المُتخرّج في مدارسه، في الوقت الذي كان التعليم الديني قد ضُيّق عليه الخناق، فيتخرج الطالب في مدارسه ولا يكاد يجد من المرتب ما يسد رمقه! وفوق ذلك، فقد كان مدرّس الشريعة وطالبها محلّ سخرية وتهكم، والنتيجة الطبيعية أن ينفر الطلاب من الدروس والعلوم الإسلامية، ويتجهوا إلى مدارس لا تُعنى بأمرِ الإسلام، ومن ثم يبدأ البعد عن الإسلام. يقول (هاملتون جب) في كتابه (وجهة الإسلام):

((لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين –ولو من غير وعي منهم– أثراً يجعلهم في مظهرهم العام لا دينيين إلى حدٍّ بعيد))[1].

لقد كان مخطط أعداء الإسلام دقيقاً محكماً في محاربة الإسلام وإدخال بدعة

---

(١) مقدمات المناهج. للأستاذ: أنور الجندي. ص١٧١.

فصل الدين عن الدولة في ديار المسلمين، فلم يبدؤوا الإسلام بهجوم سافر، بل كان حربهم له من وراء ستار، خشية أن يلهب التصدي للإسلام علانية مشاعر المسلمين، وعند ذاك يخفق هؤلاء في تحقيق أهدافهم، فأرسلوا أفكارهم المسمومة، يحملها نفر ممّن أعدّوهم لحملها إعداداً باسم التّقدم والوطنيّة والتحرّر والعلم. يقول (هاملتون جب):

((إنه قد يبدو للنظرة الأولى أنّ الجمهرة العظمى من المسلمين لم تتأثر بحوادث دينية أوروبيّة، وإنّ التفكير الدينيّ الإسلاميّ قد ظلّ وثيقَ الاتصال بأصوله الدينيّة التقليديّة، ولكن ذلك ليس هو الحقيقة كلها. فالواقع أنّ التعاليم الدينيّة ومظاهرها عند أشدّ الناس محافظة على الدّين وتمسّكاً به قد أخذت في التّحول ببطء خلال القرن الماضي، فإن دخول عناصر جديدة على الحياة الإسلامية كان يقتضي إبراز بعض تعليمات الدين، وتوجيه عناية أكبر إليها، ووضعها في المكان الأول، ووضع تعليمات أخرى في مرتبة غير أساسيّة. وإذا حدث هذا فمعناه أنّ الموازين الدينية والتعاليم الأخلاقية في الإسلام آخذة في التحول، وأن هذا التحول يتجه نحو تقريبه من الموازين الغربية في الأخلاق التي هي في الوقت نفسه متمثلة في التعاليم الأخلاقية للكنيسة المسيحية))[1].

وزاد في الطين بلّة حين صارت البعوث من أبناء المسلمين تتوالى على دول الغرب للدراسة في معاهدها وكلياتها. ولا ريب أن الطالب في هذه الكليات يزداد جهالة إلى جهالته في أمرِ دينه، ويتعلّق بمثل وأخلاق وطباع الدولة التي يدرس فيها، وهي مثل وأخلاق وطباع غير إسلامية. وهكذا حتى يصير المسلم

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ٢/ ٢٠٤.

داعياً إلى الغرب، متحمّساً لمُثلهِ وعاداته أكثر من تحمسه لأخلاق أمته. يقول (مورو بيرجر):

((أما الآن، فقد قُبلت التأثيرات الغربية في الشرق الأدنى إلى درجة تجعل من الصعب التحقق من أنّ امرءًا ما قد ذهب أو لم يذهب إلى أوروبا مثلاً، فقد أصبح العرب متغربين دون أن يتكلفوا عبء الذهاب إلى أوروبا))[1].

وإذا كان الغرب قد نجح في غزوه الفكري، فقد أخفق في مجالات كثيرة، حين تكوّنت ردود الفعل عند الشعوب الإسلامية، حيث كان من نتيجة ذلك الغزو أن انبرى عدد ليس بالقليل في العالم الإسلامي يدعون إلى التمسّك بالإسلام، بعقيدتهِ وشريعتهِ ومُثلهِ ونبذ ما عداه نبذ النواة.

وظهرت حركات إسلامية تدعو إلى الأخذ بالإسلام، وجعله نظام حياتها، يطبّقهُ الفرد والأسرة والمجتمع والدولة. ولقد أصيب العلمانيون بخيبة أملٍ مريرة حين رأوا ردود الفعل تلك، فقد قال (عصمت أنونو) وهو في مرض موته: ((إنني لا أكاد أصدق ما أرى! لقد بذلنا كل ما نستطيع لانتزاع الإسلام من نفوس الأتراك، وغرسِ مبادئ الحضارة الغربية مكانه، فإذا بنا نُفاجَأ بما لم نكن نتوقعه، فقد غرسنا العلمانية فأثمرت الإسلام))[2].

لقد كان الإسلام –ولا يزال كذلك– دين الحياة بحقّ، عُنيَ بشؤون الدّنيا كما عُنيَ بشؤون الدّين، وهذه الحقيقة أقرّ بها حتى غير المسلمين، بل أقرّ بها

---

(١) أساليب الغزو الفكري. تأليف الدكتور: محمد علي جريشة ومحمد شريف الزيبق. الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

(٢) أساليب الغزو الفكري. ص٩٦.

-أيضاً- كثير من الحاقدين من المبشرين والمستشرقين. يقول الفيلسوف (جيبون):

((القرآن مُسلّمٌ به من حدود الأقيانوس إلى نهر الفانك بأنه الدستور الأساس ليس لأصول الدين فحسب -يعني بذلك التعبد في مفهوم الغرب- بل للأحكام الجنائية والمدنية والشرائع التي عليها مدار حياة نظام المجتمع الإنسانيّ وترتيب شؤونه))[1].

ويقول الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) في كتابه (العقد الاجتماعي):

((إنّ محمداً قد أقام نظاماً سياسيّاً بارعاً لحكم دولته، وقد كان في ذلك سرّ قوة خلفائه الذين اتّبعوه في حكم المسلمين ما داموا ملتزمين نظامه))[2].

ويقول (هاملتون جب):

((ليس الإسلام ديناً بالمعنى المجرّد الخالص، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني، ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانيّة، لأن ظروفه في أوّل الأمرِ أدّت إلى ربطِ السّياسة بالدّين. وقد أكدت هذه النزعة الأصيلة ما تلا ذلك من صوغ القانون الإسلامي والنّظام الاجتماعي. والحق أن الإسلام ليس مجرّد نظامٍ من العقائد والعبادات، إنه أعظم من ذلك بكثير، فهو مدنيّة كاملة))[3].

ويقول (جورج روبير):

((إنّ الإسلام ليس ديناً فحسب، إنه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ،

---

(١) المنهزمون. للأستاذ: يوسف العظم. ص١٠٥-١٠٦. الطبعة الثانية. ١٣٩٧هـ. دار القلم دمشق - بيروت.

(٢) المنهزمون. ص١٠٦.

(٣) الإسلام والدّعوات الهدّامة. للأستاذ: أنور الجندي. ص٢٩٠-٢٩١.

وإنه -أيضاً وبصفةٍ خاصة- مجتمع روحيّ واجتماعيّ، ونظامٌ سياسيّ، وأسلوب للعيش. ولقد أعطى الإسلام للدنيا حقّها، وللآخرة حقّها، فلا نرهق الروح على حساب البدن، ولا نرهق البدن على حساب الرّوح، فالازدواج كامل بين الروحيّة والماديّة في شخصيّة المسلم))[1].

ويقول الأستاذ (ريتشارد هارتمان):

((قلّما تجد بين الأديان الكثيرة ديناً ينفذ إلى حياة معتنقيه كلها، فرديّةً كانت أم جماعية، مثلَ الإسلام؛ ذلك أنه جمع السلطة الدينية في شكل الدولة السياسيّ، ووقيَ خطر التفرقة بين أمور الدين والدّولة))[2].

ويقول الأستاذ (هورتن):

((نجد في الإسلام اتّحاد الدين والعلم، وهو الدّين الوحيد الذي يوحّد بينهما، ونجد فيه كيف أنّ الدين موضوع بدائرة العلم، ونرى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيهِ سائرتينِ معاً باتّحاد، ومتجاورتين كتفًا إلى كتف))[3].

ويقول الأستاذ (أميل درمنجم):

((الإسلام ليس عقيدةً ماديّةً تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحيةً لا صلة لها بالمادة ولا بالحياة، وإنّما الإسلام عقيدة ترتكز على المادة والرّوح، والدّنيا والآخرة، جسم وروح، ودولة ودين، وحياة وغيب، والإسلام عقيدة تقدّميّة، لا بوصفهِ مُؤيّداً لنظريات الاجتماع الحديثة، بل لأنه يدفع

---

(١) سقوط العلمانية. للأستاذ: أنور الجندي. ص١٩٥.

(٢) سقوط العلمانية. ص١٩٥.

(٣) سقوط العلمانية. للأستاذ: أنور الجندي. ص١٩٧.

الإنسان دوماً إلى الأمام))[1].

وبعد: فقد أراد أعداء الإسلام من دعوتهم هذه أن يترك المسلمون دينهم، ويعتنقوا أفكاراً وضعيّة أرضيّة بدل المناهج الإسلامية. وهذه الأفكار الوضعيّة الأرضيّة هي التي أوجدت أزمة الإنسان الحديث، وهي التي كوّنت في الإنسان القلقَ والاضطراب والتمزّق والصّراع والضّياع والتيه والخوفَ والألم والجريمة. فكيف نستبدلُ الذي هو أدنى بالذي هو خير! ونتنازل عن ذلك الفكرِ وتلك العقيدة والشريعة والخلق والقيم التي ظلّ المسلمون يعملون بها أربعة عشر قرناً، وقد أثمرت ثمرات طيّبة، وصاغتهم صياغة خاصة؟!

وهكذا يبدو جليّاً أن هذه الدعوة مؤامرة كبيرة خطيرة على المجتمعات الإسلامية، وأن دعوتها لم تكن علمية خالصة، لكنها كانت تستهدف تحرير المسلمِ من دينه، وإخراجه من قيمه وأخلاقهِ ومزاجه النفسيّ.

---

(١) سقوط العلمانية. ص١٩٦.

مؤامرات وشبهات وردود

"وإنّا لهُ لحافظون"

تعرّض القرآن الكريم منذ أن بعث الله رسوله محمداًﷺ بالإسلام إلى يوم الناس هذا، إلى إثارة الشبهات بعد الشبهات حوله، وصبِّ المطاعن والشكوك نحوه من أناسٍ ملحدين كانوا يحرّفون الكلم عن مواضعه، وأناس من المستعمرين همّهم بثّ المؤامرات لمحاربة القرآن الكريم الذي جمع ويجمعُ شمل المسلمين، ويمدّهم بأسباب القوة. لذلك كثرت دعواتهم لمحاربة القرآن صراحةً أو من وراء ستار. فهذا (غلادستون) رئيس وزراء بريطانيا الأسبق، يصرّح على رؤوس الأشهاد قائلاً:

((ما دام هذا القرآن موجوداً -في أيدي المسلمين- فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان))[1].

وهذا الحاكم العسكري في الجزائر، في ذكرى مرور مئة عام على استعمار الجزائر، يقول: ((إننا لن ننتصر على الجزائر ما داموا يقرأون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نُزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقطع اللسان العربي من ألسنتهم))[2].

أما الصنف الثالث من الناس، فكانوا ممن ينتسبون إلى أهل الكتاب، وتخرجوا في مدارس الإرساليات التنصيرية، التي كانت تسمّى بالإرساليات التبشيرية، وقدموا خدماتهم إلى المستعمرين بصورة عامة، وإلى الذين استعمروا

---

(١) الإسلام على مفترق طرق. تأليف: ليوبولد فايس، الذي أسلم وتسمى باسم: محمد أسد. ص٤٣. ترجمه إلى العربية: الدكتور عمر فرّوخ. دار العلم للملايين – بيروت.

(٢) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله. تأليف: جلال العالم (عبد الودود يوسف).ص٣١.

البلاد العربية والإسلامية بصورة خاصة، إنهم المستشرقون وكثير من تلاميذهم الذين تربّوا على أيديهم. ومن قبل هؤلاء وأولئك صنف رابع، هم الزنادقة الذين أوغلوا بوضع الشبهات حول القرآن، لعلمهم أنه المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي، فإذا شكّكوا المسلمين فيه، فقد بلغوا مآربهم وما يريدون، ولا ننسى الصنف الخامس الذين يحملون اسم الإسلام، من الذين افتروا الأكاذيب أو صدّقوها حول جمع القرآن، فحكم هؤلاء بعقولهم الكليلة على القرآن، وادّعوا شيوع التحريف فيه، وحذف سورٍ منه وآيات. وظلت هذه الشبهات القديمة وشبهات حديثة تلوكها الألسنة في كل قرنٍ من القرون الخالية، فلم يخلُ قرن منها ممن يرفع عقيرته بالإساءة إلى الإسلام، لعله يقدر على النيل منه، ولكنّ اللهﷻ هيّأ في كل قرن من القرون عشرات من العلماء الأعلام والمفكّرين الأفذاذ، الذين تصدّوا للمتطاولين على كتاب اللهﷻ، وبيّنوا حقيقة افتراءاتهم التي شربوها مُعتّقة من دنان الجهل!

وأحب هنا أن أتحدث باختصار عن حفظ الله للقرآن الكريم، مع ذكر نماذج من تخرّصات الجهلة وافتراءاتهم، فأقول وبالله التوفيق:

القرآن: هو كلام الله المعجز، المنزلُ على النبي محمدﷺ باللسان العربي، المكتوب بين دفّتي المصحف، المنقول بالتواتر، المُتعبّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختتم بسورة الناس.

وهو كتاب هدايةٍ للناس جميعاً عربهم وعجمهم، وقد ختم الله به الكتب السماويّة، وجعله منهاجاً كاملاً للحياة، وهو المعجزة الباقية لرسول اللهﷺ، وتظل باقيةً إلى أبد الآباد، وقد اشتملَ على العقائد والعبادات والأخلاق والتشريعات التي تسعد المسلمين السعادة المُثلى إذا عملوا بما جاء به، وهو كتاب

خالد لا يدخله شيء من التحريف، أو التزوير، أو الزيادة فيه، أو النقصان منه[1].

وقبل أن نتحدث في تكفّل الله تعالى بحفظ القرآن، يستحسن أن نتحدث عن الرسالات قبل رسالة الإسلام، فكانت كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله موكلة إلى تلك الأمم، وقد أمرهم سبحانه بالمحافظة عليها، فقال:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2].

لكنّ الذين استحفظوا على كتاب الله فرّطوا في القيام بتلك المهمة التي هي أعظم المهمات، فلم يحفظوا تلك الكتب نسياناً تارةً، وتحريفًا تارةً، وإخفاءً تارة أخرى، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

---

(١) ينظر كتابنا: علوم القرآن. ص٩. الطبعة الأولى المزيدة والمنقحة ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م. دار الفرقان – عمان – الأردن.

(٢) المائدة ٤٤.

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾[1].

فهذه التوراة التي أنزلها الله تعالى على سيّدنا موسى عليه السّلام، لم يمضِ على إنزالها غير فترةٍ وجيزة بعد موتِ سيّدنا موسى عليه السلام، حتى دخلها التحريف والتغيير. وليست الأناجيل بأحسن من التوراة في أمرِ التحريف، وكل من يطّلع على الأناجيل ويرى الفروق الجوهرية بينها، يدرك ما أصاب الإنجيل الذي أنزله الله على سيّدنا عيسى عليه السّلام من تحريفٍ بعد أن رفعهُ الله إليه.

وهكذا، كلّما حرّف أقوامٌ كتاباً من الكتب التي أنزلها الله على أنبياء ورسلِ تلك الأقوام، أو نسُوا بعضاً منه، أو قاموا بإخفاء شيء منه، عند ذلك يبعث الله رسولاً آخر بكتابٍ آخر.

حفظ الله للقرآن

ولما أراد اللهﷻ أن يختم رسالاته بنبوة محمدﷺ، كان لا بدّ من حفظ كتابه الكريم، فلم يستحفظ عليه أحداً من الناس، بل تكفّل الله سبحانه هو بحفظه، فلا يدخله شيء من التغيير أو التبديل أو الزيادة فيه أو النقصان منه؛ لأن الإسلام هو خاتم الرسالات، لا يُنسخ ولا يُبدّل، فلا نبيّ ولا رسول بعد محمدﷺ. ويظل هذا الدّين قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هكذا تكفّل الله بحفظ القرآن الكريم بصورة وعدٍ قاطع، ولا يخلف الله

---

(١) المائدة ٤١.

وعده: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

وقال عن القرآن أيضاً: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[2].

وهذا الوعد من الله بحفظ القرآن هو تكريم لهذه الأمة، وتبيان لفضلها على غيرها من الأمم. وهكذا أيضاً يبدو فضل القرآن على غيره من كتب الله المتقدمة.

أما رسول اللهﷺ، فقد نصّ أيضاً على أنّ هذا القرآن محفوظ بحفظ الله، فلا يستطيع أحد تحريفه وتبديله، فقالﷺ:

«ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم بما علمني يومي هذا. وقال: إنّما بعثْتُكَ لأبتليك وأبتليَ بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأهُ نائماً ويقظانا»[3].

وواضح من هذا الحديث أن هذا القرآن لا يُمحى ولا يزول؛ لأن الله تعالى هو الذي تكفّل بحفظه، وهذا هو معنى قوله تعالى في الحديث القدسيّ الذي مرّ آنفًا: «لا يغسلهُ الماء».

من أسباب حفظ كتاب الله من التحريف

وإذا كان اللهﷻ قد تكفّل بحفظ هذا القرآن، فقد جعل أسباباً لحفظه، من ذلك:

١- تحفيظ الله لرسوله القرآن. قال الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿ لَا

---

(١) الحجر ٩.

(٢) فصلت ٤٢.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة ونعيمها. باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. حديث ٧٢٠٧.

﴿تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[1].

وهذا الوعد من الله لحفظ القرآن الكريم كله، فلو ضاعت آية واحدة منه، لتخلف وعد الله في حفظه، والله تعالى لا يخلف وعده. قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾[2].

٢- مدارسة سيدنا جبريل لرسول اللهﷺ القرآن كله في كل شهر من أشهر رمضان، ودارسهُ في العام الأخير من رمضان قبل وفاته عليه الصلاة والسلام القرآن مرتين.

٣- هيأ الله تعالى لرسوله محمدﷺ صحابةً كراماً حفظوا القرآن حفظاً متقناً، ومنهم من تلقى القرآن حرفاً حرفًا عن رسول اللهﷺ فكان منهم حفاظ متقنون، ومن هؤلاء الحفاظ: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وأبو الدرداء عويمر بن زيد، وغيرهم ممن تلقى القرآن عن رسول اللهﷺ[3]. وكان عددُ من حفظَ القرآن من الصحابة يفوق التواتر حفظاً في الصّدور، فوق حفظه في السطور. وتلقى التابعون القرآن عن الصحابة، فكثر حفاظ القرآن، وهكذا الأمر في كل جيل من أجيال المسلمين.

٤- نهى رسول اللهﷺ صحابته في ابتداء دعوة الإسلام أن يكتبوا شيئاً غير

---

(١) القيامة ١٦-١٩.

(٢) الأعلى ٦-٧.

(٣) ينظر: علوم القرآن للمؤلف. ص٤٨.

القرآن، فقال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحُه»[1]، وذلك ليقبلَ الصحابة على حفظ القرآن واستنساخه، وقد كتب قسم من الصحابة مصاحف لهم ليرجع إليها من يريد تثبيت حفظه. وقد كُتب القرآن كله في حياة رسول اللهﷺ، وكان للرسول الكريم كُتّاب بلغ عددهم اثنين وأربعين كاتباً، وأما كتّاب الوحي في المدينة، فكانوا أكثر من كُتّاب الوحي في مكة[2].

٥- جَمْعُ القرآن في خلافة أبي بكرٍ الصدّيقرضي الله عنه: بعد أن انتقل رسول اللهﷺ إلى جوار ربه، عمل أبو بكر على جمع القرآن بين دفّتين، وبعد وفاتهﷺ بخمسة عشر عاماً، قام عثمان بن عفانرضي الله عنه بجمع الأمة على كتاب واحد كتابةً وأداءً، وذلك باستنساخ عدد من المصاحف وتعميمها على قسم من الأقطار الإسلامية، وأدخلوا فيه الحركات والنقاط لتسهل قراءته على الناس؛ لأن مصلحة تيسير قراءة القرآن اقتضت ذلك، وقد قال الإمام النووي: ((قال العلماء: ويُستحبّ نقط المصحف، وشكله؛ فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيفه))[3].

كل هذه الجهود المتلاحقة -وغيرها كثير- منذ عهد رسول اللهﷺ والخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم، كان من وسائل صون كتاب الله من التحريف، وهذه الوسائل لم تتوافر لغير القرآن من الكتب السماوية؛ لذلك ظل القرآن مصوناً عن التحريف، ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري، نقرأ القرآن

---

(١) رواه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق. باب: التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم. حديث ٧٥١٠.

(٢) التراتيب الإدارية للكتاني. ١/ ١١٦. دار الكتاب العربي – بيروت.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن. للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي. ص١٨٩. حققه وعلق عليه: محمد الحجّار. الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م. دار ابن حزم – بيروت.

كما كان يقرأه رسول اللهﷺ وصحابته سواءً بسواء.

حفظ الله لكل القرآن وليس لبعضه

وحين نتأمل بآيات القرآن، نجد أن الله جل جلاله نصّ على أن كل ما أنزله على رسوله محمدﷺ هو الذكر، وهذا لا يكون إلا للقرآن كله، وليس لبعضه، قال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾[1].

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[2].

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[3].

وآيات القرآن التي نصّت على أن الله تعالى حفظ القرآن كله كثيرة، منها قوله تعالى﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾[4].

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾[5].

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[6].

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[7].

---

(١) الأعراف ٩٦.

(٢) الأنبياء ٥٠.

(٣) الزخرف ٤٣-٤٤.

(٤) السجدة ٢.

(٥) آل عمران ٣.

(٦) المائدة ٤٨.

(٧) النحل ٨٩.

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

وهذا الوعد من الله تعالى هو لحفظ القرآن الكريم كله وليس لبعضه، فلو ضاعت منه آية واحدة لتخلف وعد الله في حفظه، والله ﷻ لا يخلف وعده.

وحين نؤمن إيماناً لا شكّ فيه أن رسالة نبينا محمد ﷺ هي الرسالة الخاتمة، فهذا يعني أن النبوة والرسالة قد خُتمت، فلا يبعث الله نبياً ولا رسولاً بعد نبوته ورسالته، ولا يُنزلُ كتاباً بعد القرآن.

ولقد وصف الله تعالى كتابه القرآن بالعزة؛ فهو محفوظ من العبث فيه، لا يأتيه الباطل بأية حالة كانت من الحالات: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[2].

ومما وصف الله به القرآن أنه مصون ومحفوظ بحفظ الله، فلا يناله التحريف: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ﴾[3] وهكذا يظل القرآن محفوظاً بحفظ الله، لتكون الحجة قائمة على الناس.

المستشرقون والقرآن الكريم

كانت أساليب المستشرقين كثيرة ومتعددة الجوانب في التشكيك بالقرآن الكريم، وقد سلكوا هذا المسلك المشين المهين الذي لا يتفق مع البحث العلمي الرصين الذي حملوا شعاراته؛ لأن الطعن بالقرآن –وهو المصدر الأول من

---

(١) القيامة ١٦-١٩.

(٢) فصلت ٤١-٤٢.

(٣) الواقعة ٧٧-٧٨

مصادر التشريع الإسلامي- هدم للإسلام كله، فكتب المستشرق الألماني(نولدكه) كتاباً سمّاه (تاريخ القرآن)، وفي أحد فصوله العنوان الآتي: (الوحي الذي أنزل على محمد، ولم يُحفظ في القرآن)[1].

وهكذا فعل المستشرق (برتون)، فقد شكّك بروايات جمع القرآن، وبشخصية الصحابي الجليل (زيد بن ثابت) خاصةً، الذي كان له الأثر الكبير في عملية جمع القرآن، حتى زعم أن دور هذا الصحابي اختُرِعَ اختراعاً، وأن روايات الجمع هي من نسج الخيال!

أما المستشرق الإنجليزي (آرثر جفري)، فقد أساء إلى القرآن أيضاً، ولم تكن له الأمانة العلمية حين نشر كتاب (المصاحف) لابن أبي داوود، فتصرّف فيه تصرّف الخائن، وأتى فيه بأبوابٍ مثل باب: (ما غيّرَ الحجّاجُ في مصحف عثمان)!

وأما دائرة المعارف الإسلامية، فقد كثر فيها الطعن بالإسلام، ومنه الطعن بالقرآن، فجاء فيها تحت عنوان (قرآن): ((إنّه لا شكّ أن هناك فقرات من القرآن ضاعت))[2].

وجاء في دائرة المعارف البريطانية: ((إن القرآن غير كاملِ الأجزاء))[3].

ومن هؤلاء المستشرقين الذين أساؤوا للإسلام: (جولد تسيهر) و(شاخت) و(مرجليوث) و(ليفي بريل) و(برنارد لويس) و(مكسيم رودنسون) وغيرهم.

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم. تأليف: محمد محمد أبو شهبة. ص٢٨٣. الطبعة الثانية. مكتبة السنة – القاهرة. ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم. ص٢٨٣.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم. ص٢٨٣.

ومما ساعد المستشرقين وجرّأهم على الإساءة للقرآن الكريم، وجود فرق ضالة مضلّة تحمل اسم الإسلام، لكنّها افترت روايات كثيرة –وكلها كذب– حول تحريف القرآن، ناسبةً ذلك إلى الخلفاء الثلاثة: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان. رضي الله عنهم جميعاً. ومن هؤلاء المفترين: (محمد ابن يعقوب الكليني) المتوفى سنة ٣٢٨هـ أو هـ٣٢٩، فقد قال:

((إنّ القرآن الذي جاء به جبرائيل عليه السلام، إلى محمدﷺ، سبعة عشر ألف آية))![1].

وإذا علمنا أن القرآن الكريم الذي بأيدي المسلمين اليوم في العالم الإسلامي كلّه، عدد آياتهِ ٦٢٣٦ آية، فهذا يعني أنّ ١٠٧٦٤ آية قد سقطت، ولا يعرف المسلمون عنها أيّ شيء كان. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾.

المنصفون من المستشرقين:

وإذا كان المستشرقون –والغربيون بصورة عامة– تتضمن كتاباتهم صوراً سوداء عن الإسلام بصورة عامة والقرآن بصورة خاصة، فإن منهم من تضمّنت كتاباتهم المدح والقدح بالإسلام معاً لأسباب عدة، وهناك منهم من أثنى الثناء الحسن على ديننا وعلى قرآننا، ولم يكونوا من المسلمين حتى يتهمهم من يتهمهم بالتعصب للإسلام، بل كانوا من غير المسلمين، ولم يكرههم أحد ويحملهم على الاعتراف بأن القرآن لم يُصَب بشيء من التحريف، فقد بيّنوا الدقة المتناهية في نقله من جيل إلى جيل، من غير أن تمتدّ إليه يد بالزيادة فيه أو النقصان منه، فقال

---

(١) أصول الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني. ٢/ ٦٣٤.

المستشرق (لوبلو): ((إن القرآن هو الكتاب الربّاني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر))[1].

وقال المستشرق الإنجليزي (وليم موير): ((إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا دون أيّ تحريف، ولقد لوحظ بعناية شديدة، بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يُذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة))[2].

وقال المستشرق (لاندو):

((اتّخذ القرآن شكله القانوني الذي وصل إلينا سليماً لم يطرأ عليه أيّ تحريف))[3].

ومن المستشرقين الذين شهدوا شهادة الحق للقرآن الكريم: المستشرقون (دينيه) و(جوته) و(ليبون) و(لوازون) و(هنري دي كاستري) و(واشنطن أبروينج)[4].

وأخيراً: فقد توالت محاولات في القرن العشرين لتحريف كلمة واحدة أو

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم. تأليف: محمد عبد الله دراز. ص٤٠. الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م. دار القلم.

(٢) مدخل إلى القرآن. ص٤٠.

(٣) القرآن الكريم من منظور غربي. تأليف: الدكتور عماد الدين خليل. ص١٢. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م. دار الفرقان – عمان – الأردن.

(٤) المستشرقون والقرآن الكريم. تأليف: الدكتور بهاء الدين حسين. ص٧٠. الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م. دار النفائس – عمان.

كلمتين أو ثلاث من كلمات القرآن الكريم، فقام الفرنسيون في الجزائر يوم كانوا مستعمرين لها بطبع عشرات الآلاف من المصاحف المزوَّقة بأوراقها الزاهية، بعد أن حرّفوا فيها قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1]. فحذفوا كلمة (غير) من الآية؛ ليتغيّر المعنى إلى عكس المراد! ولكنّ الحفّاظ لكتاب الله من المسلمين كانوا لهم بالمرصاد، فكشفوا زيف فعلهم، فجُمعت المصاحف وأحرقت، ليظلّ حفظ كتاب الله للقرآن، ويظلّ المسلمون آمنين على قرآنهم من التحريف، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

(١) آل عمران ٨٥.

فتنة القرآنيّين

نبتتْ نبتة خبيثة في مجتمعاتنا الإسلامية، تسعى في هدم الإسلام ونقضه في الصميم. وأصحاب هذه النبتة وإن لم يجاهروا بذلك، لكن تؤول دعوتهم إلى ذلك من حيث يشعرون أو لا يشعرون. ويُطلق على هؤلاء اسم (القرآنيّين). ولا يظنّن أحد أنّ المراد بـ(القرآنيّين) حفظة القرآن. لا، فإن حفظته كانوا يُسمّوْن في عصر الإسلام الأوّل بـ(القرّاء)، وكانوا على جانبٍ كبير من العلم والإخلاص لدعوة الإسلام والجهاد في سبيل الله، وكم استشهد منهم في الغزوات والحروب، وليس (القرآنيّون) يتّصفون بشيء من صفاتهم، ولا خدموا الدراسات القرآنية دراسةً تُظهر جانباً واحداً من جوانب عظمة القرآن، وقد خالفوا إجماع الأمة الإسلامية في أحكام وردت عن رسول اللهﷺ في أحاديث صحيحة، وربّما اتّخذ القرآنيون هذا الاسم ليموِّهوا على الناس ضلالاتهم، ويوهموهم أنهم يقدسون القرآن. وقد حظيت هذه الفئة بأسباب الدعم من منظمات عدة، تختلف في مناهجها، لكنها تتفق على الإساءة إلى الإسلام.

منهاج القرآنيّين:

أما منهاج هذه الطائفة الضالة المُضلّة، فهو إنكار حجيّة السنّة النبويّة، والاكتفاء بالقرآن مصدراً وحيداً من مصادر الإسلام لا مصدر غيرهُ، وإنّ السنة عندهم لا تُثبتُ أيّ تشريعٍ كان من التشريعات، وإنها تتعارض مع القرآن، ورفعوا شعار: حسبُنا كتابُ الله، ناسين أو متناسين أن السنة مفسّرة لكتاب الله، ومفصِّلة لمُجمله، ومخصِّصة لعامّه، ومُقيِّدة لمُطلَقه، ومُكمِّلة لأحكامه.

تاريخهم

ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي في الهند جماعة تدعو إلى الاكتفاء

بالقرآن وعدم الأخذ بالسنة. وصار لهذه الدعوة في القارّة الهندية رواج، واستفحلت دعوتهم هناك، وكان لـ(أحمد خان) الأثر الكبير في نشر هذه الفكرة بين مسلمي الهند، فكان يدعو لها، ويشكّك في أحاديث رسول اللهﷺ، وتسرّبت منها إلى الباكستان وبنغلاديش، وصارت لها كيانات مستقلّة ومعترف بها، فتقوم بممارسة ضلالاتها بحريّة وعلى رؤوس الأشهاد، ثمّ تسرّبت -بعد ذلك- إلى بعض البلاد العربية، وبخاصة إلى مصر.

دور العلماء في مقاومة هذه الدعوة

وقف علماء القارة الهندية لهذه الدعوة بالمرصاد، وفنّدوا ما أتوا بهِ من فكرٍ منحرف. وقد أبلى كلّ من الشيخين (أبي الأعلى المودودي) و(أبي الحسن الندوي) بلاءً حسناً في مقاومة بدعتهم هذه، وتحذير الناس منها.

دعاة القرآنيّين في مصر

ابتدأت السّهام المريشة تنهال على حجيّة السنة النبوية في مصر، وبعض من حمل هذه الدعوة الرعناء لا تغيب عنهم جهود علماء الحديث في تنقيته من الأحاديث الموضوعة، ولا يغيب عنهم أيضاً أنّ إجماع المسلمين قد انعقد على أن السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى يوم الناس هذا، وأنّ ما صحّ عن رسول اللهﷺ من أحكام يجب العمل بها، ولكنّ الأمر أمرُ اتباع الهوى -إن أحسنّا الظنّ بهم- وربما كان منهم من يتبنى هذا الفكر ليصرف أنظار الناس إليه، نعوذ بالله من الضّلال وأهله! أما الكثرة الكاثرة ممن حمل لواء إنكار حجية السنة، فهم أناس غرباء عن الدراسات الإسلامية بصورة عامة، وعن السنة النبوية بصورة خاصة.

ولستُ أدري أيعجب القارئ أم لا يعجب إذا علم أنّ من السفارات الغربية من كانت تستعين بعملاء لها ممّن يحملون اسم المسلمين، ليبحثوا عن قضايا شاذّة

في تراثنا العربي الإسلاميّ، ويقوموا بنشرها بين الناس، ليبثوا الشكوك والريبة عن ديننا في مجتمعاتنا الإسلامية.

المستشرقون والسنة النبوية

وحين نلقي نظرة على البدعة السيئة التي افتراها (القرآنيّون)، ما نراها غير ترديدٍ لما قاله المستشرقون من قبلهم، فقد أثاروا شبهات كثيرة حول القرآن الكريم أولاً، وتصدى العلماء الأعلام في الردّ على شبهاتهم، فعادوا يجرّون أذيال الخيبة والهزيمة، لكنّهم لم ييأسوا، فعادوا بأسلوبٍ آخر لينالوا من ديننا، فاتّجهوا إلى الطعن بالسنة النبويّة التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلاميّ، ومن هذينِ المصدرين يستقي المسلمون تشريعهم. فهذا المستشرق اليهوديّ (جولد تسيهير)[1] نشر نتيجة بحثه وكان بعنوان (دراسات إسلامية) باللغة الألمانية، وذلك عام ١٩٨٠م، ثمّ ترجم إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، فهو يقول:

((ولا نستطيع أن نعزوَ الأحاديث الموضوعة للأجيال المتأخرة وحدها، بل هناك أحاديث عليها طابع القدم، وهذه إمّا قالها الرسول، أو من عمل رجال الإسلام))[2].

---

(١) جولد تسيهير: مستشرق يهودي، ولد في بلاد المجر في هنغاريا سنة ١٨٥٠-١٩٢١م، ودرّس في أشهر مدارس الاستشراق في برلين وغيرها، ورحل إلى سورية سنة ١٨٧٣م، وتتلمذ على العلامة الشيخ طاهر الجزائري، ثمّ رحل إلى فلسطين ومصر. له مؤلفات في الفِرق الإسلامية والفقه.

(٢) مناهج المستشرقين في دراسة الحديث النبوي. للدكتور: محمد أحمد رضوان صالح. ص١٠٧. الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م. مكتبة الطبري – القاهرة.

وبعد مضيّ ستّين سنة على نشر هذا الكتاب، كتب (شاخت)[1] كتابه (أصولُ التشريع المحمّديّ)، وذكر نتيجة بحثه: أنه ليس في السنة النبوية حديث واحد من الأحاديث الصحيحة، وبخاصة الأحاديث الفقهية، وأن السنة النبوية بأنواعها الثلاثة: القولية والفعلية والتقريريّة، ظلّت بعيدة عن التشريع الإسلامي، لا يُلتفت إليها ولا يُعمل بها، ولم تكن مصدراً من مصادر التشريعِ لا في عهد الرسول، ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ولا في عهد كبار التابعين! ويزعم أن الإمام الشافعي هو الذي جعل السنة النبوية المصدر الثاني من مصادر التشريع![2].

وإذا كان (جولد تسيهير) قد شكّك بالأحاديث النبوية؛ فإن (شاخت) زاد على ذلك بأنّ عدم صحّة الأحاديث هو قضية يقينيّة لا شكّ فيها. وظلّ العمل بهذينِ الكتابينِ لدى المستشرقين بما يقرب من ثلاثة أرباع القرن.

وهناك كتاب ثالث صدر بعد هذين الكتابين بعنوان (أحاديث الإسلام) من

---

(١) جوزيف شاخت: مستشرق ألماني متخصص في الفقه ١٩٠٢-١٩٦٩م، له مكانة كبيرة في دراسات المستشرقين، ترجم عدداً من الكتب العربية -وبخاصة في مجال الفقه- وله مشاركاته في (دائرة المعارف الإسلامية) التي وضعها المستشرقون، له عدد من الكتب، أشهرها: تحقيق كتاب الحيل في الفقه لابن أبي حاتم القزويني، وأصول التشريع المحمدي.

(٢) هذه مغالطة أيّة مغالطة من هذا المستشرق، فإن الإمام الشافعي مسبوق بإمامين جليلين من أئمة الفقه هما: الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، المتوفى سنة ١٥٠هـ، والإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة المتوفى سنة ١٧٩هـ. أما الإمام الشافعي فقد توفي سنة ٢٠٤هـ. ومن أصول مذهبي أبي حنيفة ومالك الأخذ بسنة رسول اللهﷺ، وقد وضع الإمام مالك أول كتاب في الحديث هو (الموطأ) ووزع أحاديثه على أبواب الفقه، ووجود هذا الكتاب دليل واضح على تكذيب ما ذهب إليه (شاخت) من أن السنة قبل الإمام الشافعي لم تكن مصدراً للتشريع.

تأليف (ألفريد غيوم)[1] اعتمد فيه اعتماداً كلياً على كتاب (جولد تسيهير)، فلم يضف مادة علمية مهمة على ما قاله (جولد تسيهير)[2]. ويقول (ميور وغليوم):

((إن الأحاديث الموضوعة اختلطت بالأحاديث الصحيحة اختلاطاً لم يمكن بعده التمييز بينها، وإن الآلاف بل آلاف الآلاف من الأحاديث التي راجت في أوقاتها لم يكن عليها مسح من الأصالة والصحة))[3].

وهذا هو المنهج نفسه الذي سلكه المستشرق الأمريكي (هاملتون جب)، فهو يقول:

((إن الإسلام مبني على الأحاديث أكثر مما هو مبني على القرآن، ولكنّنا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة (كذا) لم يبقَ من الإسلام شيء، وصار أشبه بصبِّيرة (طومسون). وطومسون هذا رجل أمريكي جاء إلى لبنان، فقُدِّمت له مرّةً صبّيرة، فحاول أن ينقّيها من البذور، فلمّا نقَّى منها كلّ بذورها، لم يبقَ في يدهِ منها شيء))[4].!!

---

(١) ألفريد غيوم: مستشرق إنجليزي، ولد عام ١٨٨٨م، تخرّج في جامعة أوكسفورد، وعمل في فرنسا ومصر، نال عدداً من الأوسمة، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع العلمي العراقي، له عدد من المؤلفات، منها: تراث الإسلام، ومدخل إلى علم الحديث، وأثر اليهود في الإسلام.

(٢) ينظر كتاب: دراسات في الحديث النبوي. تأليف الدكتور: محمد مصطفى الأعظمي. ص: ي. طبع سنة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م. المكتب الإسلامي – بيروت.

(٣) مناهج المستشرقين في دراسة الحديث النبوي. ص١٠٧. نقلاً عن كتاب: لمحات من الحديث النبوي. تأليف: محمد أديب صالح. ص٥٢. الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. المكتب الإسلامي – بيروت.

(٤) التبشير والاستعمار في البلاد العربية. تأليف: عمر فروخ ومصطفى الخالدي. ص٤٠. طُبع سنة: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م. المكتبة العصرية – بيروت.

فعل المستشرقون هذا لمعرفتهم أنّ التشكيك بالسنة النبويّة هو أقصر الطرق للنّيل من هذا الدين. وقد كان المستشرقون أذكياء في محاربتهم للسنة النبويّة؛ فإنهم لو استطاعوا تجميد العمل بالسنة، لاستطاعوا أن يبلغوا غايتهم –حين ذاك– إذ إن فهم عددٍ غير قليل من الآيات يتوقف على فهم السنة النبوية، لأن كثيراً من أحكام القرآن هو من القواعد العامة التي تحتاج إلى تفسير، فالصلة بينهما وثيقة، فلا يُفصل القرآن عن السنة، ولا تقوم قواعد الإسلام إلا بالقرآن والسنة معاً.

وعلى قيثارة المستشرقين في التضليل هذه، عزفَ القرآنيون فعادوا يردّدون ما ردّده المستشرقون من قبل.

أدلة القرآنيين على إنكار السنة

من أهم ما استدلّ به القرآنيون على إنكار السنة آيات من القرآن، وحين نتأمل بتلك الأدلة لا نجد فيها دليلاً واحداً يصلحُ أن يُعوّل عليه لنصرة دعواهم. فمن تلك الأدلة:

١ – قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[1].

٢– قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[2].

٣– قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[3].

---

(١) المائدة ٣.

(٢) الأنعام ٣٨.

(٣) النحل ٨٩.

٤- قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[1].

هذا أهم ما استدلّ به الذين ينكرون السنة من آيات القرآن الكريم. ونحن نعجب كيف يتجرّأُ هؤلاء على تفسير كتاب الله بفهمهمُ السّقيم؛ لأن تفسير كتاب الله له قواعد نصّ عليها العلماء يجب مراعاتها. فمن التجني على كتاب الله أن يعبث به العابثون، وينحرف بتفسير آياته مَن لم تكن له قدمٌ راسخة في لغة القرآن وعلومها ومنهاج هذا الدين.

ونبدأ بتفسير الآيات التي استدلّوا بها على إنكار السنّة النبويّة:

أمّا عن قول الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾، فإنّ كمال الدين يكون بالقرآن والسنة معاً، وليس بالقرآن وحده، بدليل أن الآيات القرآنية ظلّت تنزل على رسول اللهﷺ بعد نزول هذه الآية في التشريعات، كآيات تحريم الرّبا مثلاً، هذا من ناحية.

ومن ناحيةٍ أخرى، فإن الله تعالى تكفّل بحفظ السنة كما تكفّل بحفظ القرآن، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾، فإنّ لفظَ الذّكْرِ هنا يُطلق على القرآن والسنّة معاً كما قرّر ذلك المحقّقون من العلماء. ويرد (ابن حزم الظاهري) على مَن يدّعي أن الله تكفّل بحفظ القرآن ولم يتكفّل بحفظ السنّة فيقول:

((هذه دعوى كاذبة مجرّدة من البرهان، وتخصيص للذّكر بلا دليل، وما كان هكذا فهو باطل، لقولهِ تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، فصحّ أنّ

---

(١) العنكبوت ٥١.

مَن لا برهان له على دعواه ليس بصادقٍ فيها، والذكر اسم واقع على كل ما أنزل الله على نبيّه محمدﷺ من قرآن أو من سنة، وحي يبيّن بها القرآن، وأيضاً، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فصحّ أنّه عليه السلام مأمور ببيان القرآن للنّاس))[1].

أمّا قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ فالمراد بالكتاب: هو اللوح المحفوظ. فهو الكتاب الذي أحصى الله فيه كلّ شيء ممّا هو كائن وممّا سيكون. ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾. وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا هو مذهب المُحقّقين من المفسّرين. وبهذا يسقط استدلالهم بهذه الآية الكريمة أيضاً.

على أنّ هذه الآية الكريمة حتى لو كان المراد بها هو القرآن الكريم، فلا دليل لهم في الآية أيضاً؛ لأن آيات الأحكام في القرآن لا يزيد عددها عن خمسمئة آية، وأما أحاديث الأحكام فهي ما يقربُ من أربعة آلاف وخمسمئة حديث، فلم يُفصّل القرآن إلا في قليل من الأحكام، وجاءت السنة مفصلة لها.

وهكذا نجد القرآن الكريم جاء بأصول التشريع ولم يُفصّل الأحكام كلّها. فيكون معنى الآية على المعنى الثاني: أنّ القرآن لم يغادر من الأحكام التي تستقيم

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام. تأليف: الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري. ١/ ١١٨. دار الكتب العلمية – بيروت.

بها حياة الناس إلا بيّنها بصورة مفصلة أو مجملة، وتأتي السنة النبوية لتبيّن الآيات المُجملة.

وأمّا استدلالهم في إنكار السنة بقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾، فهو استدلال سقيم أيضاً؛ لأن القرآن أنزله الله تعالى قواعد كليّة لكل ما يتعلّق بحياة المسلم والمسلمة من الأمور الدينيّة، وتفصيلات كثير من تلك القواعد جاءت بها السنة النبويّة أيضاً.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾، فإن معناها لا كما يظنّون؛ لأن معنى الآية يتوقّف على الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾. فقد طلب المشركون (آيات) أي (معجزات) ماديّة، وهم يعلمون أنّ هذا القرآن معجز بحقّ، قد بهرتهم بلاغته وفصاحته وبيانه، فهو يخاطب المشركين بما معناه: أولم يكفهم هذا القرآن معجزةً أفضل من المعجزات الماديّة التي طلبوها؟ إنّه القرآن العظيم! وهو كافٍ للتصديق برسالة محمدﷺ.

القرآن يأمرنا أن نأخذ بالسنّة

والقرآن الكريم نفسه يأمرنا أن نأخذ بسنة رسول اللهﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[1].

تنص الآية نصاً صريحاً واضحاً على أنّ أي تشريع يشرعه رسول اللهﷺ هو تشريع ملزم، فهو كالقرآن في وجوب العمل به، سواء أكان قولاً أم فعلاً، حتى

---

(١) الحشر ٧.

لو كان السبب خاصاً؛ فإن العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[1].

هذه الآية الكريمة ومثيلات لها كثيرة، تنص على وجوب طاعة المؤمنين لرسولهمﷺ في حياته وبعد مماته. وصيغة الأمر فيها فرض لازم لا يحتمل التأويل. وتكون طاعة المؤمنين للرسول بالتزام أوامره والانتهاء عن نواهيه. قال ابن حجر العسقلاني متحدثاً في الآية الكريمة:

((أطيعوا الله فيما نصّ عليكم في القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بيّن لكم من القرآن، وما ينصّه عليكم من السنّة))[2].

أو المعنى: ((أطيعوا الله فيما أمركم به من الوحي المتعبّد بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن))[3].

ولقد توالت آيات القرآن في وجوب طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله: ((**وقد لاحظ العلماء أنه ما جاء أمر في طاعة الله في كتابه الكريم إلا قَرن الله معه الأمر بطاعة رسوله، وشركه إمّا بواو العطف، أو بواو العطف مع إعادة الأمر بالطاعة، وكذلك ما ورد في القرآن تحذير أو تخويف من معصية الله إلا عطف الله رسوله في**

---

(١) النساء ٥٩. وفي الآية الكريمة تكرر فعل (أطيعوا) في جانب رسول اللهﷺ؛ لينص على وجوب طاعته على الإطلاق، على خلاف (أولي الأمر)، فلم يتكرر فعل الأمر (أطيعوا) فيهم؛ لأن طاعتهم ليست بمطلقة كطاعة الله ورسوله، بل هي مقيّدة بطاعتهم لله ورسوله.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني. ١٣/ ١٣٩. الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م. دار السلام ودار الفيحاء.

(٣) فتح الباري ١٣/ ١٣٩.

هذا التحذير أو التخويف))[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2]. ويدعو الله سبحانه إلى وجوب اتّباع رسوله ﷺ في كلّ ما يتعلّق بأي أمر كان من أمور الدّين، ويحذر جل جلاله من لم يقبل حكم رسول الله ﷺ، فيقول: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[3].

وتتوالى آيات القرآن التي تنصّ على وجوب الأخذ بسنة رسول الله ﷺ.

أمثلة على بيان السنة للقرآن الكريم

وننظر في إقامة الصلاة، فنجد القرآن الكريم لم يتحدّث إلا عن وجوبها وحُسن أدائها، فلم يتحدّث في شروطها وأركانها وسننها، ولا في عدد ركعات الفرض وإفراد الركوع وتثنية السجود. وطريقة معرفة ذلك لا يكون إلا بالسنّة.

وهكذا الأمر في فريضة الزّكاة، فقد قال تعالى: ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾، ونرى أنّ اللفظ القرآني هنا جاء عاماً، فلم يتحدث في شروطها ومقادير الزكاة فيها. ولا تُعرف تفصيلات ذلك إلا من السنة النبويّة. وهكذا الأمر في الصّيام والحجّ.

إفراد السنة بأحكام

---

(١) مكانة السنة في التشريع الإسلامي. تأليف: الدكتور محمد لقمان السلفي. ص٤٠. الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م. دار الداعي – الرياض.

(٢) الأحزاب ٣٦.

(٣) النساء ٦٥.

انفردت السنة النبوية في النص على أحكام لم ترد في القرآن الكريم، من ذلك: عقد السَّلم[1]، وتحريم أكل الحُمُر الأهليّة، ورجم الزاني المُحصن، ومنع القاتل من الميراث، ومنع التوارث بين مختلفي الملّة، والحكم بشاهد مع يمين المدّعي، وتحريم لبس الذهب والحرير على الرّجال، وتحريم أكل كل ذي ناب من السباع، ووجوب الدية على العاقلة، وفكاك الأسير، وثبوت حق الشفعة لمن وُجد عنده سببها، وميراث الجدة، وزكاة الفطر، والأذان، وزكاة الأنعام.

لذلك نجد الإمام محمد بن علي الشوكاني يقول:

((اتّفق مَن يعتدّ به من أهل العلم على أنّ السنة المطهّرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال، وتحريم الحرام))[2]. ويقول: ((إنّ ثبوت حجيّة السنّة المُطهّرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، لا يُخالف في ذلك إلا من لا حَظّ له في دين الإسلام))[3].

حجّتهم داحضة

حين نقيم الحجة على منكري السنة بأن أربعة من أركان الإسلام العمليّة تتعطّل إذا لم نأخذ بالسنة النبويّة، وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج، نراهم

---

(١) السّلَم: عقد على موصوف في الذمّة ببدلٍ يُعطى عاجلاً. فحين قدم رسول اللهﷺ المدينة رأى الناس يسلفون في الثمار السنة والسنتين، فقال: «من أسلفَ فليُسلف في كيلٍ معلوم، ووزنٍ معلوم، إلى أجلٍ معلوم». رواه الخمسة، ينظر: نيل الأوطار للشوكاني. ٥/ ٣٤٢. طبعة دار الجيل.

(٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. للإمام محمد بن علي الشوكاني. ص٣٣. الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م. مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(٣) إرشاد الفحول. ص٣٣.

يدفعون ذلك بقولهم: إنّ أركان الإسلام الأربعة هذه نؤديها كما كان رسول اللهﷺ يؤديها، لأنها من السنن العملية، ونحن لا ننكر إلا السنة القولية وحدها، وقد أخذ المسلمون هذه الأركان العملية عن رسول اللهﷺ جيلاً عن جيل!

ويردّ على هذه الدّعوى الأستاذ الدكتور عبد العظيم إبراهيم المطعني فيقول:

((وهذا الدفع مرفوض، مرفوض لأن للسنن العمليّة سناً قولية لا حصر لها، وهذه السنة القولية لا تُدرك من رؤية النبيﷺ يصلّي ويحجّ ويصوم ويزكّي. ومن أبرز ما يُحتجّ به على منكري السنة حديثان، هما: «صلّوا كما رأيتموني أصلي»، و«خذوا عنّي مناسككم». وهذان الحديثان من السنن القولية لا من السنن العملية. ومعنى هذا أنّ السنة القولية أصلٌ للسنّة العملية، فكيف إذن يُستغنى عن أصلٍ ثبتت به السنة العمليّة؟! فلو لم يقل: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي» ما ثبت شرعاً وجوب محاكاة صلاة الرسولﷺ. ولو لم يقل: «خذوا عني مناسككم» ما علمنا أنّ الأمة يجب أن تتأسّى بأفعال النبيّ وأقواله في الحجّ، وإلّا وقع الحجّ باطلاً إذا خالف كيفية حجّ النبيّﷺ))[1].

ويقول تحت عنوان الفقه القولي: ((هب أننا شاهدنا النبيﷺ يصلّي صلاة العشاء من تكبيرة الإحرام إلى الخروج منها بالسلام، فهل هذه المشاهدة تميّز لنا أركان الصلاة التي تبطل الصلاة بترك واحد منها، ثمّ سنن الصلاة، ثم

---

(١) الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية. تأليف: الدكتور عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني. ص١٣٦-١٣٧. بتصرّف قليل. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م. مكتبة وهبة - القاهرة.

مندوبات الصلاة وفضائلها. هل كنا ندرك أن قراءة (أم الكتاب) فرض، وأنّ قراءة سورة بعدها أو أيّ سنة لا تبطل الصلاة بتركها سهواً؟ وما يدرينا أنهﷺ يقول في ركوعه: (سبحان ربي العظيم، ثلاثاً)، ويقول في سجوده: (سبحان ربي الأعلى، ثلاثاً)؟ ومن يدرينا أنّ السلام الأول إلى اليمين فرضٌ، والثاني إلى الشمال ليس فرضاً؟ إن لكل سنة عمليّة سناً قولية لا في الصلاة وحدها، بل في كل التكاليف؛ وبهذا يدفع هذا الدفع الباطل))[1].

حكم من ينكر السنة النبوية

ولقد حذّر العلماء تحذيراً شديداً تصطكّ منه الرّكب، كل من ينكر السنة النبوية، حتى ذهبوا إلى تكفيره وخروجه من الملة، فقال الإمام ابن حزم: ((ولو أنّ امرءًا قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن، لكان كافراً بإجماع الأمة، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل، وأخرى عند الفجر؛ لأن ذلك هو أقلّ ما يقع عليه اسم صلاة، ولا حدّ للأكثر في ذلك، وقائل هذا كافر مشرك حلال الدّم والمال))[2].

وقال الإمام محمد بن الحسين الآجري: ((جميع فرائض اللهﷻ التي فرضها الله في كتابه، لا يُعلم الحكم فيها إلا بسنن الرسولﷺ. هذا قول علماء المسلمين، من قال غير هذا خرج عن ملة الإسلام، ودخل في ملة الملحدين، نعوذ بالله تعالى من الضلالة بعد الهدى))[3].

---

(١) الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية. ص١٣٧.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام. للإمام ابن حزم الظاهري. ١/ ٢١٤.

(٣) كتاب الشريعة للإمام الآجري. ص٥٥. الطبعة الرابعة ١٤٣٢هـ-٢٠١١م. مؤسسة الريان – بيروت.

وقال الإمام السيوطي: ((اعلموا –رحمكم الله– أن من ينكر كون حديث رسول اللهﷺ قولاً كان أو فعلاً بشرطه المعروف في الأصول حُجّة فقد كفر وخرج من دائرة الإسلام، وحشر مع اليهود والنصارى، أو من شاء من فرق الكفرة))[1].

وقال العلامة الشيخ الدكتور عبد الغني عبد الخالق: ((وليت شعري كيف يتصوّر أن يكون نزاع في هذه المسألة بين المسلمين، وأن يأتي رجل في رأسه عقل ويقول: أنا مسلم، ثم ينازع في حجيّة السنّة بجملتها؟ مع أنّ ذلك مما يترتب عليه عدم اعترافه بالدين الإسلاميّ كله من أوّله إلى آخره، فإن أساس هذا الدين هو الكتاب، ولا يمكن القول بأنه كلام الله مع إنكار حجيّة السنة جملة، فإنّ كونه كلام الله لم يثبت إلا بقول الرسول الذي ثبت صدقه بالمعجزة. إن هذا كلام الله وكتابه، وقول الرسولﷺ هذا من السنة التي يزعم أنها ليست بحجة، فهل هذا إلا إلحاد وزندقة وإنكار للضروري من الدين، يقصد به تقويض الدين من أساسه))[2].

وأخيراً: فإن العجب كل العجب –وإن شئت فقل لا عجب– كيف يَزْورُّ القرآنيّون عن آيات القرآن الصريحة التي تنص على أن السنة النبوية هي تبيان لما في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[3].

---

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة. تأليف: الإمام جلال الدين السيوطي. ص١٤. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م. دار الكتب العلمية – بيروت.

(٢) حجية السنة. تأليف الدكتور: عبد الغني عبد الخالق. ص٢٤٩–٢٥٠. مطبعة منير – بغداد.

(٣) النحل ٤٤.

وقال: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤ ﴾[1].

هكذا يبدو لنا ممّا تقدّم أن هؤلاء القرآنيّين -إن أحسنّا الظن بهم- لم يكن لهم علم شرعيّ يُمكّنهم من استنباط الأحكام من أدلتها، ولكن كانت لهم الجرأة على التطاول على إجماع المسلمين منذ عهد الصحابة الكرام إلى يوم الناس هذا.

وهذا الذي ذهب إليه هؤلاء المتطاولون على شرع الله، إن هو إلا أُنموذج من نماذج الكيد بهذا الدين الذي نرى أمثلةً له بين آونة وأخرى، وتقوم وسائل الإعلام بالتسويق له؛ لزرع الفتنة بعد الفتنة بين المسلمين! ولكن هيهات! فلحديث رسول اللهﷺ نفوس تفتديه، ترد رداً علميّاً على كل ما يتخرّص به المُتخرّصون، ويكيد به الكائدون.

---

(١) النحل ٦٤.

شبهة النهي النّبويّ عن كتابة الحديث

مقدّمة

ما كان بودي أن أتحدث بقضية بدهيّة، لولا أنّ الذين يجادلون بالبدهيّات صارت لهم أصوات يرفعونها هنا وهناك، وهؤلاء ليسوا قسماً واحداً بل هم أقسام: منهم من استغلق عليهم فهمُ البدهيّات، فهم من النّاس العامة وشبه العامة، ومنهم المتعالمون: أولئكم الذين يأتون بالفكر الساقط وينشرونه بين النّاس، ومنهم شباب غمرٌ نكرات، أحبوا أن يعرفهم الناس –ولو بقصور عقولهم– ومن هؤلاء من يعلم باطل ما يدعون إليه، وأنّ دعوتهم أوهن من بيت العنكبوت، ولكنّ اتّباع الهوى يعمي ويصمّ –إن أحسنّا الظنّ بهم–، ولم نتعب أنفسنا في التفتيش عمّا وراء الأكمة، ورحم الله شيخ المعرة القائل:

وكيفَ يؤمِّلُ الإنسان رُشداً ... وما يَنْفكُّ مُتّبعاً هواهُ؟

يظنّ بنفسهِ شرفًا وقدراً ... كأنّ الله لم يخلُقْ سِواهُ!

وليس عجباً أن تقوم وسائل الإعلام وبخاصة السياسية منها بالترويج لتلك الوجوه؛ لأن مصلحة السياسة تقتضي ذلك، وكم أفسدت السياسةُ على النّاس أمرَ دينهم! ومن أواخر تلك البدع الضالة المضلّة، التشكيك بسنة رسول اللهﷺ، فهم يزعمون –والزعم مطيّة الكذب– أنّ السنة النبويّة لم يُكتب شيء منها في حياة رسول اللهﷺ، مرددين ما افتراه المستشرقون في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ونحن لا نعتب على المستشرقين بافتراءاتهم على الإسلام، فهم ناس خدموا ويخدمون أمتهم في تشويه صورة الإسلام –وبخاصة في العالم الغربي– وكانت لهم أقدامهم الراسخة في خدمة المستعمرين في البلاد العربية والإسلامية، ولكن

نقف بحيرةٍ أمام ناس يزعمون أنهم مسلمون، ويهدمون ركناً ركيناً من مصادر التشريع الإسلامي، وقد يصل بهم الضلال إلى الخروج من الإسلام الذي يزعمون الانتساب إليه.

وهذه رؤوس أقلامٍ فقط في الرد على الذين يزعمون أن السنة النبوية لم تُكتب في حياة رسول اللهﷺ، ونقدِّم لهذا بما كان عليه العرب من قوة الحافظة عند مبعث رسول اللهﷺ.

قوة الحافظة عند العرب

كانت الأمة العربية قُبيل مبعث رسول اللهﷺ أمّة أُميّة، لا يعرف القراءة والكتابة فيها إلا نزر قليل. لذلك اعتمدوا في تسجيل مفاخرهم وأشعارهم وخطبهم على الحفظ في الذاكرة. ومما هو معروف أن الذين يعتمدون في الحفظ على الذاكرة تتكوّن فيهم مَلكة الحفظ أكثر من غيرهم. وهكذا قويت الحافظة في العرب، وقد ظهرت قبائل عُرفت بقوّة الحافظة مثل (قبيلة كلب). جاء في (معجم الأدباء) لياقوت الحموي: ((أنّ الأصمعيّ لقي أعرابياً فسأله: ممّن الرجل؟ فقال: من قوم إذا نسي الناس علمهم حفظوه عليهم، قال: أنت إذن من كلب. قال: أجل))[1].

هكذا كان كثير من العرب مطبوعين على قوة الحفظ، فكان الواحد منهم يسمع القصيدة كثيرة الأبيات فيحفظها من مرّة واحدة أيضاً!

وكأن اللهﷻ هيّأ للأمة العربية قوة الحفظ ليحفظ الناس كتاب الله وسنة

---

(١) معجم الأدباء. تأليف: ياقوت الحموي الشامي. ٥/ ٢١٣٦. تحقيق الدكتور: إحسان عباس. الطبعة الأولى ١٩٩١م. دار الغرب الإسلامي – بيروت.

رسولهﷺ، ويبلّغوهُما إلى الناس كافة. وهكذا حفظ عدد كثير من الصحابة أحاديث رسول اللهﷺ؛ فكانوا يحيطون بمجلسه، ويتلقّفون هديَه وكل كلمة يتلفظ بها، ليطبقوها خير تطبيق.

وجاء التابعون وكان منهم حفّاظ، حتى قال محمد بن شهاب الزهري: ((إنّي لأمُرّ بالبقيع فأسُدُّ آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا؛ فوالله ما دخل أذني شيء قطّ فنسيته))[1].

وقد ورد عن الإمام الشعبي أنه قال: ((ما كتبتُ سوداء في بياض قطّ، وما سمعتُ من رجلٍ حديثاً فأردت أن يعيده عليّ))[2].

مع منكري السنة

لم يكن منكرو السنة فريقاً واحداً، بل هم فريقان، الأول: هم الذين يتمسّكون بحديث النهي عن كتابة الحديث، الذي يرويه أبو سعيد الخدري – وهو حديث صحيح–، ولا يشيرون إلى أحاديث الإباحة والإذن من قريب ولا من بعيد، وكأن أحاديث الإذن لم تكن، مع أنّ منها عدداً نصّ عليها العلماء بالصحة. وهؤلاء يتّبعون الهوى ولا يريدون الوصول إلى الحقّ. فليس من المنهج العلمي الرصين أن يأخذ العالم بحديث صحيح ويترك أحاديث كثيرة أخرى لا تقلّ بالصحة عنه إن لم تزد عليه.

الثاني: لا ينكرون أحاديث الإذن، وقد ذهبوا مذهبين فيها:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله. تأليف: أبي عمر يوسف بن عبد البر. ١/ ٢٦٣. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. الطبعة العاشرة ١٤٣٣هـ. دار ابن الجوزي. المملكة العربية السعودية. القاهرة – الإسكندرية.

(٢) جامع بيان العلم وفضله. ١/ ٢٥٨.

١- هناك من يتجرّأ على القول بعدم صحّتها، مع أنّ البحث العلميّ النزيه يقول بصحّتها، وهؤلاء عددهم قليل.

٢- هناك من يزعم أنّ أحاديث الإذن كانت في أوّل الأمر، ثم نُسخت بعد ذلك، وصار النهي عن الكتابة هو الأصل.

وكل من يريد الوصول إلى الحقيقة، يتبيّن له خطأ هذا الرأي. فهذا أبو شاه يطلب من رسول اللهﷺ أن يكتبوا له خطبة الرسول عام فتح مكة، أي في العام التاسع من الهجرة، وهو من الأحاديث الصحيحة التي رواها الإمام البخاري وغيره.

وهذا أبو هريرةرضي الله عنه، وهو ممّن تأخر إسلامه، يشهد بكثرة أحاديث الصحيفة الصادقة التي لدى عبد الله بن عمرو بن العاصرضي الله عنه، فيقول:

((ما من أصحاب النبيّﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منّي، إلا ما كان من عبد الله ابن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب))[1]. وهذا يدلّ دلالة واضحة على أن جواز الكتابة متأخر، وهو ناسخ للنهي.

هكذا تمسّك هؤلاء بحديث واحد في النهي عن الكتابة، وأعرضوا صفحاً عن الأحاديث الصحيحة الكثيرة في أمر الإباحة والإذن، وليس هذا من مناهج العلماء.

عبارات أوقعت باللبس

أورد قسم من العلماء عبارات في تدوين الحديث النبوي، فَهِم منها بعضهم أنّ الحديث لم يكتب إلا في نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني، وذلك

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم. باب: كتابة العلم. حديث ١١٣.

في ابتداء خلافة عمر بن عبد العزيز عام واحدٍ ومئة من الهجرة ١٠١هـ، فقد دوّنها في عهده (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري) المتوفى سنة أربعٍ وعشرين ومئة من الهجرة ١٢٤هـ، فقال ابن حجر العسقلاني: ((وأوّل من دوّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المئة بأمر عمر بن عبد العزيز))[1]. وبمثل هذا ما قاله السيوطي في (تدريب الراوي)، وأبو نُعيم في (حلية الأولياء) عن الإمام مالك.

وتلقّف المستشرقون هذا الكلام، فصاروا يطنطنون به هنا وهناك؛ ليتخذوا منه دليلاً بزعمهم أن الحديث النبوي كان عرضة للنّسيان، وظلّ مدّة تسعين عاماً ثمّ دُوِّن بعد ذلك! وعادت هذه الشبهة التي حملها المستشرقون يردّدها شباب غُمْرٌ ليست لديهم خبرة في كتابة الحديث النبويّ في عصر الرسالة.

وكل من يدرس كيف دُوِّنت السنة النبوية في عصر الرسالة، يعلم أنها حفظت في الصدور وفي السطور، في الصحف والكتب، وقد وُجدت صحف عدة قبل تدوين السنة في عهد عمر بن عبد العزيز.

والمُراد بتدوين السنّة: جمعها في دواوين وليس في ابتداء كتابتها، فقد كانت مدونةً ثمّ بُوّبتْ، وصُنِّف كل باب على حدة. فلم تكن مرحلة التدوين في عهد عمر بن عبد العزيز سوى ترتيب وتصنيف وجمع كل باب على حدة.

أحاديث النهي عن كتابة الحديث

هناك بعض الأحاديث التي نهى فيها الرسولﷺ عن كتابة حديثه، منها:

١- حديث رواه أبو سعيد الخدري ﷺ، ولفظه: «لا تكتبوا عنّي، ومن كتب

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني. ١/ ٢٧٥.

عنّي غير القرآن فليمحه»[1]. وهو أقوى هذه الأحاديث.

٢- عن أبي هريرةﷺ قال: «خرج علينا رسول اللهﷺ ونحن نكتب الأحاديث فقال: ما هذا الذي تكتبون؟ قلنا: أحاديث سمعناها منك. قال: أكتاباً غير كتاب الله تريدون؟! ما أضلّ الأمم قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله. قال أبو هريرة: أنتحدث عنك يا رسول الله؟ قال: نعم، تحدّثوا عنّي ولا حرج، فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار. وفي رواية: فجمعناها في صعيدٍ واحد فألقيناها في النار»[2].

٣- عن زيد بن ثابتﷺ أن النبيﷺ نهى أن يُكتب حديثه. وفي رواية: دخل زيد بن ثابت على معاوية فسأله عن حديث؛ فأمر إنساناً يكتبه، فقال له زيد: إن رسول اللهﷺ أمرنا أن لا نكتب شيئاً من حديثه، فمحاه[3].

دراسة أحاديث النهي عن كتابة الحديث

أما حديث أبي هريرة فإنه ضعيف؛ لأن في طريقه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف. وقال عنه الإمام الذهبي: أحاديثه منكرة.

وأما حديث زيد، ففي سنده المطلب بن عبد الله بن حنطب ولم يسمع من زيد، فهو منقطع، والمنقطع نوع من أنواع الحديث الضعيف.

وأما حديث أبي سعيد الخدري، فهو صحيح، وأهم ما قيل فيه ما يأتي:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد. باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم. حديث ٧٥١٠.

(٢) تقييد العلم. للخطيب البغدادي. ص٣٣-٣٤. تحقيق: يوسف العش. الطبعة الثانية ١٩٧٤م. دار إحياء السنة النبوية.

(٣) تقييد العلم. ص٣٥. وأبو داوود في سننه، كتاب العلم، باب: كتابة العلم. رقم ٣٦٤٧. وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله. ١/ ٢٤٦.

١- إنه منسوخ؛ لأن رسول اللهﷺ-بعد ذلك- رأى الصحابة يكتبون، فلم ينههم، فيكون النسخ من نسخ السنة بالسنة. وربما كان القول بالنسخ هو الأرجح؛ لأن حديث النهي متقدم على أحاديث الإباحة والإذن من الناحية الزمنية. ويؤيد هذا أن الصحابة في آخر حياة الرسولﷺ كانوا يكتبون، فلم ينكر عليهم.

وفوق ذلك، فإن الحديث الذي صحّ بالنهي عن كتابة الحديث واحد، وأما أحاديث الإباحة والإذن، فهي كثيرة، ووصلت إلى حدّ التواتر.

٢- كان نهي رسول اللهﷺ عن الجمع بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في صحيفة واحدة، خشية أن يحصل الاختلاط بينهما؛ لأن القرآن الكريم لم يتمّ نزوله كلّه آنذاك، أما حين تكون صحف للقرآن وصُحف للحديث فتكون الإباحة. قال الإمام الذهبي: ((والظاهر أن النهي كان أولاً لتتوفر هممهم على القرآن وحده، وليمتاز القرآن بالكتابة عما سواه من السنن النبوية، فيُؤمَنُ اللّبس، فلما زال المحذور واللبس ووضح أن القرآن لا يشتبه بكلام الناس، أذِن في كتابة العلم))[1].

٣- ورد النهي على مَن يتّكل على الكتابة وحدها من غير أن يحفظ، أما الإذن بالكتابة فلمن يقوم بالحفظ؛ ولذلك كانوا يقولون: احفظوا عنّا كما حفظنا[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء. ٣/ ٨١. أشرف على التحقيق: شعيب الأرنؤوط. الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م. مؤسسة الرسالة – بيروت.

(٢) جامع بيان العلم وفضله. ١/ ٢٥٣.

٤- جاء النهي لئلّا يضاهى بكتاب الله غيره، أو يُشتغل عن القرآن بسواه. وإلى هذا ذهب الخطيب البغدادي في (تقييد العلم)، وابن عبد البرّ وغيرهما[١].

أحاديث الإذن بالكتابة

لم تكن السنة النبوية التي أملاها رسول اللهﷺ على صحابته وكتبوها بالقليلة. وظلّ ما أملاه الرسول الكريم على صحابته أساساً للفقه الإسلامي يتداولونه خالفًا عن سالف. وإذا كان نهي رسول الله عن كتابة الحديث في حياتهﷺ لم يرد إلا في حديث واحد صحيح، وهو ما رواه مسلم عن رسول اللهﷺ قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»، فإنّ الأحاديث الصحيحة التي وردت في إذن رسول اللهﷺ لصحابته بالكتابة كثيرة، ومن ذلك ما يأتي:

١- الحديث المتّفق عليه، أنّ رسول اللهﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقام (أبو شاه) وهو رجل من أهل اليمن، فقال: اكتبوا لي يا رسول الله. فقال عليه السلام: «اكتبوا لأبي شاه»[٢]

وهذا الحديث الشريف قاله رسول الله في العام الثامن من الهجرة في فتح مكة.

٢- كان مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالبرضي الله عنه صحيفة كتبت في حياة الرسول الكريم، وفيها أحكام كثيرة عن رسول اللهﷺ، تتضمّن حرم المدينة، وذمة المسلمين وأمانتهم، وتكافؤ دماء المسلمين، وقتل المسلم بالكافر، وفكاك

---

(١) تقييد العلم. للخطيب البغدادي. ص٥٧ و٩٣. وجامع بيان العلم وفضله. ١/ ٢٦٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب: كتابة العلم، حديث ١١٢. ومسلم في كتاب الحج. باب: تحريم مكة وتحريم صيدها. حديث ٣٣٠٥.

الأسير، وقسم من الكبائر وعقابها، والمعاقل (الديات والجراحات)، وفرائض الصدقة[1]. وهذا إنْ هو إلا رؤوس أقلام فقط، وفيها تفصيلات، فالديات مثلاً تفصيلاتها تطول، وكذلك فرائض الصدقة وغير ذلك. وليس في هذه الصحيفة شيء يختص به سيدنا أمير المؤمنين علي، وليس هناك ما يختص به آل بيت رسول الله ﷺ. فعن طارق بن شهاب قال: ((شهدتُ عليّاً على المنبر وهو يقول: والله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا كتاب الله وهذه الصحيفة))[2].

٣- الصحيفة الصادقة: وهي صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقد كتبها في حياة رسول اللهﷺ، واحتجّ بهذه الصحيفة أئمة الإسلام وجمهور العلماء، وهي متصلة في الرواية مع كونها مكتوبة[3]. وقد احتوت على أكثر من مئتي حديث. وشهد أبو هريرةرضي الله عنه بكثرة أحاديث هذه الصحيفة على كثرة رواياته، فقال:

((ما من أصحاب النبيﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منّي إلا ما كان من عبد الله ابن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب))[4].

---

(١) كتابة السنة في عهدي النبيﷺ والصحابة رضوان الله عليهم. تأليف الدكتور: رفعت فوزي عبد المطلب. ص٢٧-٢٨. الطبعة الثانية. ١٤٣٥هـ-٢٠١٣م. دار الوفاء – المنصورة – جمهورية مصر العربية.

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن. ٢/ ٢٦٩. حديث ٩٦٢. أشرف على التحقيق: شعيب الأرنؤوط. الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م. مؤسسة الرسالة – بيروت.

(٣) كتابة السنة في عهدي النبي والصحابة. ص٣١.

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم. باب: كتابة العلم. حديث ١١٣.

وقد بيّن عبد الله بن عمرو بن العاص كيف كان يكتب في أول الأمر، ثم امتنعَ عن الكتابة لما نهته قريش، ثم عاد إلى الكتابة لما أذن له رسول اللهﷺ بها، فقال:

«كنتُ أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول اللهﷺ أريدُ حفظه، فنهتني قريش عن ذلك، وقالوا: تكتبُ ورسول الله يقول في الغضب والرّضا؟ فأمسكت، حتى ذكرتُ ذلك لرسول اللهﷺ، فقال: اكتبْ، فوالذي نفسي بيده، ما خرج منه إلا حقّ»[1].

وكانرضي الله عنه يعتزّ بهذه الصحيفة كل الاعتزاز، ويقول:

((إنّ هذه الصحيفة الصادقة التي سمعتها من رسول اللهﷺ ليس بيني وبينه أحد، فإذا سلِمَ لي كتاب الله وهذه الصحيفة والوهطُ لم أبالِ ما ضيّعت من الدّنيا))[2]. أمّا الصادقة، فهي صحيفة كتبها عن رسول الله. وأما الوهط، فأرض تصدّق بها عمرو بن العاص كان عبد الله يقوم عليها.

ومن أهمية هذه الصحيفة: كتابتها بإذن رسول اللهﷺ وفي حياته. ومن حرصهرضي الله عنه على صحيفته أنه كان يحفظها في صندوق له حِلَق حتى لا يصل إليها الناس. وقد سُئل رسول الله كما في هذه الصحيفة: أيّ المدينتينِ تُفتحُ أولاً: القسطنطينيّة أو روميّة؟ فدعا عبد الله بصندوق لهُ حِلَق، فأخرج منه كتاباً، فقال عبد الله: «بينما نحن حول رسول اللهﷺ نكتب، إذ سُئلَ رسول اللهﷺ: أيّ

---

(١) رواه الإمام أحمد. ١١/ ٤٠٦. حديث ٦٨٠٢. وأبو داوود في كتاب العلم. باب: كتابة العلم. حديث ٣٦٤٦. والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٩٨. حديث ٨٦٦٢. وغيرهم.

(٢) سير أعلام النبلاء. ٣/ ٨٩.

المدينتينِ تُفتحُ أولاً: القسطنطينيّة أو روميّة؟ فقال: مدينة هرقل تُفتحُ أولاً»[1].

٤- صحيفة عمرو بن حزم:

أملى رسول اللهﷺ صحيفة طويلة على واحد من صحابته، فيها شرائع الإسلام وفرائضه وحدوده. وقد رواها الإمام الزهري وغيره، وفيها تفصيلات الصدقات والفرائض والسنن والديات والطهارة والصلاة والزكاة والحج والعمرة وبيان الكبائر والجزية والعتق. وأعطاها إلى عمرو بن حزم لمّا استعمله على اليمن. وقد أخذها عمرو وذهب بها إلى اليمن ليفقّه أهلها، ويعلّمهم معالم الإسلام، وقرئت على أهلها. وروى هذه الصحيفة جمع من الأئمة، صحّحها بعضهم وضعّفها بعضهم، وممن صحّح إسنادها ابن حبّان والحاكم. واشتهرت هذه الصحيفة بين العلماء، وتناولوها بالقبول، وهذا دليل صحّتها عندهم.

من السنة النبوية المدوّنة

ومن السنة النبوية التي أمر الرسولﷺ بتدوينها ما يُعرف بصحيفة المدينة[2]، وكان ذلك في السنة الأولى من الهجرة النبوية، وقد نص في هذه الصحيفة على أن المدينة حرم آمن، والدفاع عنها مسؤولية مشتركة، وفيها تنظيم العلاقات بين أهلها، بين المهاجرين والأنصار، وبين المسلمين واليهود، وفيها أقرّ الرسول عليه السلام اليهود على دينهم وأموالهم، واشترط لهم واشترط عليهم، مع بيان الالتزامات التي يجب أن يلتزم بها الأطراف كلها في المدينة، مع تحديد الحقوق

---

(١) رواه الإمام أحمد. ١١/ ٢٢٤-٢٢٥. حديث ٦٦٤٥. والدارمي في سننه. ١/ ١٣٣ رقم ٤٩٢.

(٢) أطلقت المصادر القديمة على هذه الصحيفة اسم (الكتاب) و(الوثيقة) و(الموادعة) و(المعاهدة) و(الحلف). أما البحوث الحديثة فقد أطلقت عليها اسم الدستور، وتتضمّن هذه الصحيفة ٤٧ سبعاً وأربعين مادّة.

والواجبات لكل طرف من الأطراف. ومن تلك السنة المدونة: عهد النبي عليه الصلاة والسلام ليوحنّة بن رؤبة وسروات أهل أيلة. وقد ذكرت مصادر الحديث والسّير نصّ ذلك العهد، وهو مدوّن في صحيحيّ البخاري ومسلم والسيرة النبوية لابن هشام والأموال لأبي عبيد، ومجموعة الوثائق السياسية التي قام بجمعها محمد حميد الله، وغير ذلك.

ومنها كتبه إلى عماله بالتشريعات، ككتابه إلى عمرو بن حزم عامله على اليمن الذي مرّ ذكره، وكتبه في الصدقات والزكوات إلى عماله وسعاته، وكتابه إلى بني زهير بن أقيش، وكتابه إلى أهل حُرش –وهي من مخاليف اليمن– وكتابه إلى بكر بن وائل، وكتابه إلى العدّاء بن خالد بن هوذة العامريّ.

وهناك كتبُ الأمان التي أعطاها إلى سراقة بن مالك بن جعشم لما تبعه في الهجرة، وكتبه إلى أمراء السرايا، ومراسلاته عليه السّلام السياسيّة، وإحصاؤه للمسلمين وتدوين أسمائهم وأسماء الغزاة المجاهدين[1].

ومن السنّة التي أمر النبي عليه الصلاة والسلام بكتابتها رسائله الكثيرة إلى الملوك، ففي السنة السادسة من الهجرة كثُرت بعوثه عليه السلام، فقد وجّه بعد صلح الحديبية رُسله إلى الملوك يحملون كتبه، ففي يوم واحد انطلق ستة نفر إلى جهات مختلفة، يتكلّم كل واحد منهم بلسان القوم الذين بُعث إليهم[2]. ومن تلك الرسائل رسائله إلى كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم، والنجاشي

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. جمعها: محمد حميد الله، الطبعة الثامنة ١٤٣٠هـ–٢٠٠٩م. دار النفائس – بيروت.

(٢) السنة قبل التدوين. للدكتور: محمد عجاج الخطيب ص٥١. طُبع سنة ١٤٢٩هـ–٢٠٠٩م. دار الفكر – بيروت.

ملك الحبشة، والمقوقس عظيم مصر، وغيرهم كثير.

ما كتب من السنة في عهد الصحابة

كانت الصحف التي كُتبت في عهد الصحابة ليست بالقليلة؛ ذلك لأن كثيراً منهم كتبوا أشياء من سنة رسول اللهﷺ، وقد بلغ عدد الصحابة والصحابيات الذين كانت عندهم صحف من السنة إلى أكثر من خمسين منهم، وذكر الدكتور محمد مصطفى الأعظمي أسماءَ اثنين وخمسين من الصحابة والصحابيات، مع ذكر وفاة كثير منهم[1]. وأقتصر هنا على ذكر صحيفة واحدة من تلك الصحف، هي صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرةرضي الله عنه. وتُسمّى بالصحيفة الصحيحة، ونقلها الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بتمامها، وروى الإمام البخاري عدداً من أحاديثها في كتابه المعروف بصحيح البخاري في عدد من الأبواب. وتُعدّ من أبرز ما كتب في حياة رسول اللهﷺ، وهي حجة قاطعة على أن حديث الرسول الكريم دُوّن في عصرٍ مُبكّر؛ لذلك اهتمّ العلماء بها، وهي تحتوي على تسعة وثلاثين ومئة من الأحاديث. وحين ننظر إلى متابعات وشواهد هذه الصحيفة، نجد ذلك العدد يتضاعف؛ وقد أحصى الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب الأطراف التي ذكرت في تحقيق هذه الصحيفة، فوجدها زادت عن سبعمئة حديث، وأكثرها متابعات[2]، وشملت أحاديثها موضوعات مهمة في العقيدة والفقه والأدب، وحين تكثر متابعات وشواهد الصحيفة تكثر أحاديثها.

هذا جانب من الجوانب المختصرة جداً الذي يفصح بل ينصّ على أنّ كثيراً

---

(١) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه. تأليف الدكتور: محمد مصطفى الأعظمي. ١/ ٩٢-١٤٢. طبع سنة ١٤١٣-١٩٩٢م. المكتب الإسلامي – بيروت.

(٢) كتابة السنة في عهدي النبي والصحابة. للدكتور: رفعت فوزي عبد المطلب. ص٧٥.

من السنة النبوية كُتبت في حياة الرسولﷺ، وهو ردّ على من انحرف عن النهج العلمي السليم، واتّبع هواه، وتبنّى ضلالات الحاقدين من المستشرقين وتلامذتهم في التشكيك بالمصدر الثاني من مصادر الشريعة الإسلامية.

الخنجر المسموم (حركة الزنادقة)[1]

فتح العرب والمسلمون بلاد فارس، وخلّصوهم من ظلم الحكام الذين تسلّطوا عليهم بالجبروت والحديد والنار، وساموهم سوء العذاب. والناظر في تاريخ الفرس –آنذاك– يجد مواقفهم قد تفاوتت من الفتح الإسلامي، فرفضت الكثرة الكاثرة منهم العروبة والعرب؛ ذلك لأنهم كانوا يعدّون منزلتهم فوق منزلة العرب، فأعلنوا عداءهم في السرّ والظاهر للفاتحين العرب المسلمين. وفي الجانب الآخر كان في الفرس أناس معتدلون، فلما رأوا ما رأوا من سماحة الإسلام وعدله ومساواته بين الناس، رحبوا بهم، ودخلوا في دين العرب الفاتحين عن رغبة بالإسلام ليس إلّا، وبرز من الفرس الذين انضووا تحت لواء الإسلام علماء فضلاء كانوا قرّة عين الدنيا، وقد أغنوا المكتبة العربية بمؤلفاتهم القيمة.

وحين نلقي نظرة في تاريخنا الإسلامي، نجد أن الأمة الإسلامية عانت ما عانت من حركات كثيرة قديمة وحديثة، وهي تناوش حصون العقيدة وقلاع الإيمان، وتضع الشبهات تلو الشبهات حول الإسلام لتشكك المسلمين بدينهم،

---

(١) الزندقة: لفظ أعجميّ مُعرّب. وقد اختلفت معاني الزندقة حسب اختلاف العصور، فأطلق لفظ (الزنديق) في أول ظهوره على من يتأثر بعادات الفرس، ويُسرف بالمجون. ثم أطلق على من يُظهر الإيمان ويخفي الكفر، وعلى هذا جاء قول الشاعر:

بغداد أرض لأهل المالِ طيّبةٌ ... وللمفاليسِ دار الضّنكِ والضّيقِ

أصبحتُ فيها مضاعاً بين أظهرهم ... كأنني مصحف في بيتِ زنديقِ

البيتان في (معجم البلدان) لياقوت الحموي. ١/ ٥٥٠. مادة بغداد.

وأطلق لفظ الزنديق أخيراً على من يتّخذ (المانوية) ديناً وشعاراً له، أو يتمسك بعقيدة (الثنوية) التي تقول بوجود إلهين اثنين، إله للخير، وآخر للشرّ.

أو تنحرف بهم عن فهمه الصحيح، أو تمنع من يريد الدخول في الإسلام، ومن تلك الحركات القديمة التي ظلت الأمة تعاني غصصها وتعيش آلامها، وظلّت عقابيلها تعمل عملها في الأمة هنا وهناك، حركتا الزنادقة والشعوبيّة.

لقد أكرم الله أمتنا بدين الله الخالد الذي جمع الكمال من أطرافه، حين أرسل محمداً بن عبد اللهﷺ بهذا الدين. ويشاء الله أن يكتب لدينه الذيوع والانتشار، ففتحت البلاد والأمصار في عهد الخلفاء الراشدين –ومنها بلاد فارس التي فتحت في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطابرضي الله عنه – وهناك قضى الإسلام على طغيان الأكاسرة، وأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، بعد أن تعرّفوا على عقيدته وشريعته وما يدعو إليه من إقامة العدل والمساواة ومكارم الأخلاق. ولا عجب في هذا فهو دين الفطرة. أما الذين حملوا لواء هذا الدّين ونشروه في الأمم فهم العرب المسلمون من صحابة رسول الله رضي الله عنهم، وعلم الله منهم صدق نياتهم، فبارك في دعوتهم وفتح قلوب الناس لما يدعون إليه، فانضوت أعداد كثيرة من الأمم والشعوب تحت لواء هذا الدين عن اقتناع وإيمان، فلم يجبر المسلمون أحداً على اعتناق الإسلام، ممتثلين قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[1].

هكذا استجابت أمم كثيرة وشعوب عديدة، وأقوام مختلفة لنداء الفطرة، فهداها الله فأسلمت وحسُن إسلامها، بعد أن نبذت عقائدها الباطلة التي ورثتها عن الآباء والأجداد، وصارت تعرف للعرب فضلهم؛ إذ هم الذين حملوا رسالة الإسلام إليهم، مضحّين بما يملكون من أجل هداية الأمم.

---

(١) البقرة ٢٥٦.

محاولة الزنادقة الانحراف بعقيدة الإسلام وشريعته

وقد عزّ على بعض من الفرس أن يفتح بلادهم العرب المسلمون، فكانوا يرون منزلتهم فوق منزلة العرب، فكيف يدينون بدين جاء به العرب ويطيعون له، والطاعة لا تكون -بزعمهم- إلا ل(الشاهنشاه) الذي ينحدر -بزعمهم أيضاً- من أصلاب الآلهة! لذلك عملوا على النيل من هذا الدين الذي قضّ مضاجعهم وتركهم يتقلّبون على جمر الغضى بأساليب عدة؛ ليثلوا أركان دولة الإسلام التي انتشرت في الآفاق، ففكّروا وقدّروا، ورأوا أن الدعوة إلى ديانات الفرس وموروثاتهم القديمة تُعدّ من أقوى الأساليب في تهديم صرح بنيان دولة الإسلام، فشرعوا في الاندماج في مجتمعاتهم يدعون الناس سراً وعلى حذر إلى العودة إلى ديانات آبائهم وموروثاتهم القديمة، واضعين الشبهات تلو الشبهات عن العرب الذين حملوا لواء الإسلام، وعن تشريعات هذا الدين.

كانت هذه هي البدايات الأولى لتكوين جبهة من الحركات الهدّامة لمقاومة الإسلام في صميم عقيدته وتشريعاته. وحين نتأمل بالمعارضة التي رفعت رأسها لمقاومة هذا الدين نراها قد اتّخذت ثلاث صور:

١- صورة مقاومة عقيدة الإسلام، ووضع الشبهات والمفتريات حولها، وقامت بهذه المهمة: (حركة الزندقة).

٢- صورة محاربة اللغة العربية؛ وأدبها وشعرها، وقامت بهذه المهمة: (حركة الشعوبية).

٣- صورة محاربة الدولة العربية الإسلامية بالقوة، وتولّت هذه المهمة: (حركة التمرد والعصيان والردّة المسلحة).

وقد اتّخذ مبغضو العرب والمسلمين الذين قاموا بالكيد لهذا الدين صوراً

وأشكالاً متعدّدة، وكلّها تنطلق من مبدأ واحد، هو محاربة الإسلام والعروبة، سواء كان باسم: (بابك الخرمي)، أو (الأفشين)، أو (أبو مسلم الخرساني)، أو (إسماعيل الصفوي).

القول بإلهينِ اثنين

أراد التحدي الفارسي أن ينقض الأصل الأصيل من أصول ديننا–وهو توحيد الله ﷻ– فاتجه بالدعوة إلى ديانة ثنوية مجوسية، تدعو إلى القول بوجود إلهين اثنين، أولهما يقوم بخلق الخير وثانيهما يقوم بخلق الشر!

واتّجه علماء المسلمين يردون على هذه العقيدة الباطلة –عقيدة الثنوية– وعندهم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فوق ردودهم المنطقية والفلسفية على تلك الضلالات، مقيمين عليهم الأدلة الكثيرة من آيات القرآن في المحاججة العقلية، من ذلك قول الله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2].

أمّا علماء المنطق والفلسفة، فقد صاغوا في الردّ عليهم من القرآن نفسه دليلاً أسموه: (دليل التمانع)[3].

---

(١) المؤمنون ٩١.

(٢) الأنبياء ٢٢.

(٣) دليل التمانع: وهو أنه يستحيل أن يكون للعالم فاعلان مستقلّان بالفعل، فإن استقلال كلٍّ منهما ينفي استقلال الآخر، فاستقلالُهما يمنع استقلالَهما، ووِزَانهُ في هذه المسألة: (أن وقوعَهما يمنع=

لمحة عن الباطنية

الذين قاموا بالبدعة الضّالة المُضلّة من التأويلات الباطنيّة هم أولاد المجوس، حتى تم تنظيمها على يد (ميمون القداح) ورفاقه، وقد جاء من جنوب بلاد فارس لينشر مع رفاقه الإلحاد والإباحية، ووضع الأحاديث المكذوبة على لسان رسول اللهﷺ، وكان من دعاة الإسماعيليّة، وخلفه على دعوته هذه ابنهُ (عبد الله بن ميمون القداح) المعروف بتآمره على الإسلام. يقول الدكتور ماجد عرسان الكيلاني وهو يتحدّث عن الباطنيّة:

((هي حلقة لسلسلة المحاولات التي قامت بها سلالات الارستقراطيات الفارسية التي فقدت امتيازاتها بانهيار حكم الأكاسرة والزردشتيّة، والرامية إلى استعادة ذلك المجد الغابر. ولتحقيق هذا الهدف لجأت إلى أساليب وشعارات جديدة، تتّفق مع المنعطف العقائديّ والحضاري الذي تحوّل إليه الشعب الفارسي المسلم بعد الفتوحات الإسلامية. ومن هذه الأساليب الجديدة: الشعوبيّة والباطنيّة، والتشيّع المتطرّف، والفلسفة الأفلاطونيّة الجديدة، وإحياء اللغة الفارسية))[1].

والباطنيون فرق متعددة، من أبرزها (الخرميّة) أتباع (بابك الخرميّ)، والقرامطة الذين ظهروا في خلافة (المعتضد بالله العباسي) سنة ٢٨١هـ، واستطاعوا أن يقيموا لهم دولة في البحرين والأحساء والقطيف، وبلغت بهم

=وقوعَها). إعلام الموقعين عن رب العالمين. لابن قيّم الجوزيّة. ٣/ ١٩٨. تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم. طبع سنة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م. دار الكتب العلمية – بيروت.

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. للدكتور: ماجد عرسان الكيلاني. ص٧١. الطبعة الخامسة ١٤٢٩هـ-٢٠٠٠م. دار الفرقان – عمان – الأردن.

القوة والجرأة حتى صاروا يهدّدون بإسقاط الدولة العباسيّة.

وأما (الزنج)، فكانوا من الباطنية أيضاً، وقد قادهم علي بن محمد، مدّعياً أنه من أولاد عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وفسّر قسماً من آيات القرآن تفسيراً باطنيّاً. وظلّت فتنتهم قائمة بين سنِي ٢٥٠-٢٧٠هـ.

التفسير الباطني للقرآن الكريم

هناك من أعداء المسلمين ومن المحسوبين على المسلمين من فسّرَ القرآن الكريم تفسيراً باطنياً، وهذا -بلا شكّ- إساءة كبيرة لكتاب اللهﷻ. وحين ننظر إلى أنبياء الله ورسله وما أنزل الله عليهم من كتب تتضمّن العقيدة والشريعة والأخلاق وما ينفع الناس في الدنيا والآخرة، نجد أن كلّ واحد من تلك الكتب قد جاء بلسان تلك الأقوام، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1].

ولمّا أرسل الله رسوله محمداًﷺ، جعل أعظم معجزاته القرآن الكريم بلسان عربي مبين، إلى العرب الذين بلغوا القمة في البلاغة العربية والفصاحة والبيان، فكانوا يدركون معانيَ القرآن؛ لذلك لم يسألوا رسول اللهﷺ إلا عن تفسير آياتٍ قليلة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[2].

وقال: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[3]. وواضح من هاتينِ الآيتينِ وآيات كثيرة أخرى، أن آيات القرآن تؤخذ بظواهرها. ولقد تحدّى الله

---

(١) إبراهيم ٤.

(٢) القمر ١٧.

(٣) الدخان ٥٨.

العرب –وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان– أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا، ثمّ تحدّاهم أن يأتوا بعشرِ سورٍ من مثله فعجزوا، ثمّ تحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا أيضاً. لقد تحدّى الله العرب بذلك لأنها كانت تعرف معاني القرآن، ولو كان كتاب الله من قبيل الألغاز، وكان تفسيره باطنيّاً لما تحدّاهم بمعارضته؛ لأن حجّتهم –حينها– أنهم لا يفهمون تلك الألغاز التي تسمّى بالتفسير الباطنيّ؛ لذلك لم يتمكّنوا من الإتيان بمثله، فلا يكون التحدّي له موضع عندهم.

إن من الأمور المعروفة عند العرب أن هناك صلة بين المفردات القرآنية ومعانيها، ((فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعاني، وأصبحت الكلمات لا تدلّ على معنًى خاصّ، ومفهوم معيّن، أو تسرّب الشكّ والاختلاف إليها، أصبحت هذه الأمة فريسة لكلّ دعوة وفلسفة، وساغ لكل أحد أن يقول ما يشاء، ويروّج على كثير من العامة وأشباه العامة، بل الخاصة، وعمّت الفوضى العقلية والدينيّة، وذلك ما يريدون، ومنه يدخلون))[1].

مؤامرات الباطنيّة في تأويلاتهم المحكمات من آيات القرآن

ومع الأدلة القاطعة المفحمة التي ردَّ بها علماء المسلمين على الباطنيّين، فقد ظلوا يسلكون الحيلة بعد الحيلة، والخديعة بعد الخديعة، والمكيدة بعد المكيدة؛ بغية تضليل الناس عن المصدر الأول من مصادر الإسلام، وهو القرآن الكريم؛ وذلك ليخرجوه عن مصدره الإلهيّ بتأويلات باطنيّة رمزيّة بعيدة كل البُعد عن

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام. تأليف: أبي الحسن الندوي. ١/ ٢٤٢. الطبعة الثانية ١٤٣١هـ–٢٠١٠م. دار القلم – دمشق.

أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، وبعيدة أيضاً عن أساليب القرآن البلاغيّة ببيانها ومعانيها. إنّهم فعلوا ذلك لينحرفوا بالفهم الصحيح للقرآن الكريم، فزعموا أن كلّ آية من آيات القرآن تخفي وراءها معنىً باطنياً، ولو لم تقبلهُ لغة العرب ولا بلاغتها، بل زعموا أكثر من ذلك، فقالوا: إنّ كلّ كلمة من كلمات القرآن تُخفي وراءها معنًى باطنياً غير ما يعنيه الظاهر. يقول (هنري كوربان):

((ترى الباطنية أنّ كل ظهور وكل مظهر له معنى داخليّ مستور، وحقيقة باطنيّة، وهذه الحقيقة أسمى من الحقيقة الظاهرة، إذ بفهمها يتقرّر التقدّم الروحي للمستجيب. إذن فالظاهر صَدَفَة لا بُدّ من كسرها نهائياً، وإذا انصرفَ المستجيب (لدعوة الباطنيّة) وفق المعنى الروحيّ، سقطت منه الالتزامات التي تفرضها الشريعة))[1].

ويفصح الإمام أبو حامد الغزالي عن كفرهم في تأويلاتهم الباطنية فيقول: ((فقد قالوا: كل ما وردَ من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهيّة، فكلّها أمثلة ورموز إلى بواطن، وأما الشرعيّات: فمعنى الجنابة عندهم: مبادرة المستجيب بإفشاء سرٍّ إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه. ومعنى الغسل: تجديد العهد على من فعل ذلك. والزّنى: هو إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس مَن لم يسبق معه عقد العهد. والاحتلام: هو أن يسبق لسانه إلى إفشاء السرّ في غير محلّه، فعليه الغسل؛ أي تجديد المعاهدة. والطهور: هو التبري والتنظّف من

---

(١) دراسات في الفكر العربي الإسلامي. للدكتور عرفان عبد الحميد فتاح. ص٣٩١، الطبعة الأولى ١٤١٢-١٩٩١، دار عمار- عمان، ودار الجيل بيروت.

اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الإمام. والصيام: هو الإمساك عن كشف السرّ. والكعبة: هي النبيّ، والباب عليّ. والصّفا: هو النبي، والمروة عليّ، والميقات هو الأساس. والتلبية: إجابة الداعي. وكذلك زعموا أنّ المحرّمات عبارة عن ذوي الشرّ من الرّجال، وقد تُعُبِّدنا باجتنابهم، كما أنّ العبادات عبارة عن الأخيار الأبرار الذين أُمِرنا باتّباعهم. فأمّا المعاد، فزعم بعضهم أنّ النار والأغلال: عبارة عن الأوامر التي هي التكاليف، فإنّها موظفة على الجُهّال بعلم الباطن، فما داموا مستمرّين عليها فهم مُعذّبون، فإذا نالوا علم الباطن وُضعت عنهم أغلال التكاليف، وسُعدوا بالخلاص منها. الجن الذي ملكهم سليمان بن داوود: باطنيّة ذلك الزّمان، والشيطان: هم الظاهريّة الذين كُلّفوا بالأعمال الشاقّة. إبليس وآدم: عبارة عن أبي بكرٍ وعليّ؛ إذ أُمرَ أبو بكرٍ بالسّجودِ لعليّ والطاعة لهُ فأبى))[1].

ولم يترك علماء المسلمين هؤلاء بزيغهم عن فهم الإسلام الصّحيح، يشوّهون عقيدة الإسلام وشريعته، ويصرفون من يستطيعون صرفه عن الفهم الصحيح للإسلام، فقام عدد ليس بالقليل منهم يفضح كفرهم وجهلهم في تفسيراتهم الباطنية، من هؤلاء: عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي، وابن حزم الظاهري، وأبو حامد الغزالي، ومحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، وغيرهم كثير.

ويشير الإمام الغزالي إلى أنّ غرض الباطنية مما ذكرنا هو إبطال الشرائع،

---

(١) فضائح الباطنية للإمام أبي حامد الغزالي. ص٥٥-٥٨. بتحقيق: عبد الرحمن بدوي. الطبعة الأولى. مؤسسة دار الكتب الثقافية بالكويت.

فيقول:

((عُرفوا بالباطنية لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللّب من القشرة، وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر، قدروا على الحكم بدعوى الباطن ما يوجب الانسلاخ عن هذا الدين))[1].

ويقول عبد القاهر بن طاهر البغدادي:

((إن الذين وضعوا أساس دين الباطنيّة كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم، ولم يجرؤوا على إظهاره خوفًا من سيوف المسلمين، فوضع الأغمار منهم أسُساً مَن قَبِلها منهم، صار في الباطن إلى تفضيل أديان المجوس، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبيّ عليه السلام على موافقة أسسهم)).

ويقول أيضاً: ((إنّ غرض الباطنية هو الدعوة إلى دين المجوس بالتأويلات التي يتأوّلون عليها القرآن والسنة))[2].

الزنادقة والعمل السري

وقد كان مبدأ السريّة عندهم من أهم مبادئهم؛ خشية أن ينفضح أمرهم، فيعرف الناس ما يحملونه من عقيدة الكفر والضلال، وخوفًا أيضاً أن يحكم عليهم بالقتل بعد انكشاف أمرهم. هكذا حرصوا على ألّا يعرف حقيقة مذهبهم إلا من ينضوي تحت لوائهم، ويتدرج هؤلاء مع مَن يدعونه إلى مذهبهم مرحلةً

---

(١) فضائح الباطنية للإمام أبي حامد الغزالي. الباب الخامس. نقلاً عن دراسات في الفكر العربي الإسلاميّ. للدكتور عرفان عبد الحميد. ص٣٩٢.

(٢) الفرق بين الفرق. تأليف الإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي. ص٢٥٣. اعتنى بها وعلّق عليها الشيخ إبراهيم رمضان. الطبعة الرابعة ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م. دار المعرفة – بيروت.

بعد مرحلة في سريّة تامّة، ويبلغونه بالقول: (من أذاع السرَّ ذاق حرَّ الحديد))، يقول عبد القاهر البغدادي:

((والباطنية لا يُظهرون دينهم إلا لمن كان منهم، بعد تحليفهم إيّاه على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم))[1].

مؤامرات الفرس على الدولة الأمويّة

لقد كان عدد ليس بالقليل من الفرس على اختلاف مبادئهم واتّجاهاتهم يكيدون للدولة الأموية بالشام. ويحدّثنا التاريخ أنّ نصر بن سيار –وكان والياً على الكوفة في عصر الدولة الأموية– رأى بعيني بصيرته المكايد التي يكيدها الفرس، فكتب إلى مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أميّة رسالةً جاء في آخرها الأبيات الآتية:

أرى خلَلَ الرّمادِ وميضَ نارٍ ... ويوشكُ أن يكون لها ضِرامُ
فإنّ النّارَ بالعودَينِ تُذكى ... وإنّ الحرب أوّلُها الكلامُ
فإنْ لم يُطفِها عقلاءُ قومٍ ... يكونُ وقودَها جُثثٌ وهامُ
فقلتُ من التّعجّبِ ليتَ شعري ... أأيقاظٌ أميّـــةُ أم نيامُ؟![2]

وظهر دور الفرس أيضاً في الفتنة التي نشبت في خراسان بين المضريّة واليمانيّة، وكان الفرس من المشجّعين عليها، فكتب نصر بن سيار يحذرهم من تلك الفتنة، ويبيّن لهم أن العدوّ الفارسيّ يتربص بكم، وهم يتقرّبون بقتلكم إلى ما يعتقدون، فيقول:

---

(١) دراسة في الفكر العربي الإسلامي. ص٤٠٤.

(٢) عيون الأخبار لأبي محمد عبد الله بن مُسلم بن قتيبة الدينوري. ١/ ١٩٧. تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر. الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ–٢٠٠٨م. المكتبة الإسلامية – بيروت.

ما بالُكُم تلقحُون الحربَ بينكمُ كأنّ أهلَ الحِجا عن فِعلكُم غِيَبُ
وتتركون عدواً قد أطلَّكُمُ ممّا تأشّبَ لا دينٌ ولا حَسَبُ
قوماً يدينونَ دِيناً ما سمعتُ بهِ عن الرّسولِ ولم تنزِل بهِ الكُتُبُ
فمن يكُن سائلاً عن أصلِ دينِهمُ فإنّ دينَهُمُ أن تُقتَلَ العربُ

الزنادقة في العصر العباسي الأول

وقعت ثورات كثيرة في العصر العباسي الأول، وكان أكثرها خطورة الثورات التي أذكى نيرانها الزنادقة، وكان أول ظهور لهذه الحركة في نهاية العصر الأمويّ، وقد قويَ ظهورها بعد قيام الدولة العباسية؛ الأمر الذي جعل الخلفاء العباسيّين يلاحقونهم ويقتلون منهم من ثبتت عليه الزندقة ابتداءً من أبي جعفر المنصور، واتّبع منهجه في التّنكيل بهم الخليفة المهديّ العباسيّ، وكان أشدّ الخلفاء نكاية بهم، فقد تعقّبهم وأنشأ ديواناً لملاحقتهم، وجعل عليهم رجلاً يُسمّى (صاحب الزنادقة)، وكانت مهمّته ملاحقتهم ومحاكمتهم، كما عمل المهدي على تشكيل هيئة علميّة تعنى بمناظراتهم والردّ عليهم.

واتّهم البرامكة بالزندقة، فقال ابن النديم تحت عنوان: (ذكر مَن كان يرمى بالزندقة من الملوك والرؤساء): ((قيل إن البرامكة بأسرها من الزنادقة إلا محمد ابن خالد بن برمك))[1]. وهذا ما قاله ابن قتيبة الدينوري: ((وكذا البرامكة، كانوا يُرمَون بالزندقة إلا أقلهم.

وفيهم قال الأصمعيّ:

إذا ذكر الشّركُ في مجلسٍ أضاءت وجوهُ بني برمكِ

---

(١) الفهرست لابن النديم. ص٥٢٢. تحقيق: يوسف علي طويل. الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م. دار الكتب العلمية – بيروت.

وإن تُليَت عندهم آيةٌ أتوا بالأحاديثِ عن مزدكِ))[1]

ولقد كان واصل بن عطاء رأس المعتزلة وأول من تصدّى لهم وردّ عليهم، كما ردّ عليهم أيضاً أبو هذيل العلاف، وقد غرق بمناظراته معهم، وغيرهما كثير.

ولم تقف حركة الزنادقة عند هذا الحد من الكفر والضلال وإثارة الفتن في المجتمع، فقد دعت إلى الإباحية المطلقة، ونشر الخلاعة والمجون والزنى وإباحة الزواج بالبنات والأخوات والأمهات، وإسقاط التكاليف الدينيّة! وهذا الذي ذكرته إنْ هو إلا مقتطفات قليلة قليلة من عقائد هؤلاء، وما بقي أدهى وأمرّ مما فعلته المجوسيّة ودعت إليه.

دور الزنادقة في وضع الأحاديث

لم تكن كل من الدولتين: دولة الفرس المجوسية ودولة الروم المسيحيّة بالضّعيفتين يوم فتحهما الإسلام، بل كانت كل واحدة منهما قوية من الناحية العسكرية، لها تاريخها ولها حضارتها، وقد سيطر الفرس على عدد من البلاد العربية كالعراق واليمن، وسيطرت دولة الروم على عدد من البلاد العربية أيضاً.

ولمّا تم الفتح المبين بجنود المسلمين الذين طلبوا الموت لتوهب لهم الحياة، ودالت دولة الفرس ودولة الروم، وصار الناس موالي تحت حكم المسلمين، صار من هؤلاء وأولئك من يحنُّ إلى دياناتهم القديمة، وإلى تاريخهم وذكرياتهم فيه، وينظرون إلى حكامهم كيف هربوا أمام الجحفل الإسلامي أو قُتلوا، وكان

---

(١) المعارف لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. ص٢١٥. الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م. دار الكتب العلمية – بيروت.

حول أولئك الحكام أناس منتفعون، ذهبت منافعهم، وفقدوا مناصبهم بعد الفتح الإسلاميّ لتلك البلاد، فلم ترق الهزيمة لهم، وأدى ذلك إلى أن تمتلئ قلوبهم حقداً على هذا الدين؛ فصاروا يكيدون بالإسلام وبمبادئه في السرّ، إذ لم تكن معهم قوة يستطيعون بها الوقوف بوجه دولة الإسلام. وقد ذكر هذه المعاني الشهرستاني في (الملل والنحل)، وعبد القاهر البغدادي في (الفرق بين الفرق)، وابن حزم في (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، والإسفراييني في كتابه (التبصير في الدين)، والمقريزي في (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) الذي يقول فيه:

((إن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أنّ الفرس كانت من سعة الملك وعلوّ اليد على جميع الأمم، وجلالة القدر في أنفسها، بحيث إنهم كانوا يسمّون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدّون سائر الناس عبيداً لهم. فلمّا امتُحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكان العرب عند الفرس أقلّ الأمم خطراً، تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يُظهر الله الحقّ، فرأوا أنّ كيده على الحيلة أنجح؛ فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيّع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم عليّ ﷺ ثم سلكوا بهم مسالك شتّى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى))[1].

هكذا قرروا أن يقوموا بالانتقام من دولة الإسلام بوسائل عدّة: فلجأ من لجأ من الزنادقة ليكيدوا به، مستترين بالتشيّع تارة، وبالفلسفة تارة، وبالزهد

---

(١) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. تأليف: تقي الدين المقريزي. ٤/ ٩٠-٩١.

تارة، وبالتصوف تارةً أخرى. وأمام ما كانوا يدسّون على الإسلام من مفتريات، درس علماء المسلمين عقائدهم وما يدعون إليه، فخرجوا بنتيجة أنهم كفّار لا شكّ في كفرهم.

أرادوا الدّسَّ على القرآن الكريم، لكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا الزيادة فيه ولا التنقيص منه، وقد ردّ العلماء على تخرّصاتهم وشبهاتهم التي أثاروها حول القرآن، وقد تيقّن بعضهم أن القرآن كما وصفه اللهﷻ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ ، وأنه نقل بالتواتر في الصدور وفي السطور؛ فاتّجهوا إلى السنة النبوية؛ ليدخلوا فيها ما ليس منها ليستهجنها العقلاء، ويسخر منها الملحدون. وهؤلاء الذين أرادوا تشويه صورة الإسلام الوضاءة في الصميم لم يكونوا صنفًا واحداً، بل كانوا أصنافًا متعددة، يجمعها الكيد بهذا الدين. فلم يتّجهوا اتّجاهاً واحداً بوضع الأحاديث المكذوبة على لسان رسول اللهﷺ، بل اتجهوا اتّجاهات عدّة، بعضهم إلى وضع أحاديث مكذوبة من أجل تشويه العقيدة الإسلامية، بقصد تكدير صفائها، وسنذكر نماذج من تلك الأحاديث المفتراة، وبعضهم الآخر اتّجه إلى وضع أحاديث من أجل تشويه الشريعة الإسلامية وتخريب أخلاق المسلمين بتلك الدسائس من الأحاديث الموضوعة. وهكذا الأمر في المسائل الفكرية والاجتماعية.

وممن سلك هذا المسلك المهين المشين من الزنادقة (بيان بن سمعان النهدي)، وقد ادّعى أن الإمام عليّاً بن أبي طالب هو الإله المستحقّ للعبادة. ومنهم: (محمد بن سعيد الأسدي الشامي)، فقد وضع عدداً من الأحاديث لنشر الكفر والزندقة، وكان يدّعي النبوة بطريق خفيّ، وقد زاد في حديثٍ زيادةً قلبت

معناه وجعلته على غير ما أراده رسول اللهﷺ، فقد قال عليه السلام: «أنا خاتم الأنبياءِ لا نبيّ بعدي»، وهو حديث صحيح، فأضاف إلى الحديث قوله: (إلّا أن يشاء الله). فيصير المعنى على خلاف ما أراده رسول الله، فيكون معناه أن باب النبوة مفتوح لم يغلق!

وهكذا الأمر في (عبد الكريم بن أبي العوجاء)، فقد كان ((يدسُّ الأحاديث في كتاب جدّه لأمه حماد بن سلمة))[1] وهؤلاء الثلاثة كلهم من الزنادقة.

ويكفي أن نعلم أن الزنادقة وضعوا اثني عشر ألف حديث! قال العقيلي بسنده إلى حماد بن زيد: ((وضعت الزنادقة على رسول اللهﷺ اثني عشر ألف حديث))[2].

أمثلة من الأحاديث الموضوعة

الحديث الموضوع: هو الحديث المُختلَق المصنوع، الذي رواه كذّاب من كلامه أو من كلام غيره، ونسبه عمداً وافتراءً إلى النبيّﷺ. وسُمّيَ موضوعاً لانحطاط رتبته، فلا ينجبر أصلاً، وسُمّيَ حديثاً من باب التجاوز حسب دعوى من اختلقه، بل هو في الأصل ليس من الحديث.

ولقد كثرت الأحاديث الموضوعة كثرة هائلة في شتّى الموضوعات، فلا نكاد نجد أمراً يتعلّق بالعقيدة والشريعة الإسلامية إلا نجد الأحاديث الموضوعة فيه، بل لا نكاد نجد شيئاً يتعلق بحياة الإنسان إلا نجد الأحاديث الموضوعة فيه

---

(١) بحوث في تاريخ السنة المشرفة. للدكتور أكرم ضياء العمري. ص٢٨.

(٢) الضعفاء الكبير للعقيلي. ١/ ١٤. وفي رواية السيوطي أن الزنادقة وضعت أربعة عشر ألف حديث. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي. ص٢١٣. تحقيق: عبد الرحمن المحمدي. طبع سنة ٢٠٠٩م. دار الكتب العلمية – بيروت.

أيضاً، حتى أنواع الأطعمة من العدس والباقلاء والجوز والباذنجان وغير ذلك، وُضعت الأحاديث المكذوبة فيها، وقد قال مجد الدين الفيروزآبادي:

((وباب فضل العدسِ والباقلاء والجبن والجوز والباذنجان والرمان والزبيب، لم يصحّ فيه شيء، وإنما وضع الزنادقة في هذه الأبواب أحاديث، وأدخلوها في كتب المحدّثين شيْناً للإسلام، خذلهم الله تعالى))[1].

والأحاديث الموضوعة منها منسوبة إلى الله تعالى، وهي التي اصطلح على تسميتها بالأحاديث القُدسيّة، ومنها أحاديث منسوبة إلى النبيﷺ، وهذه أمثلة فقط لتلك الأحاديث الموضوعة: ((ينزل ربنا عشية عرفة على جملٍ أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة)).

((رأيت ربي يوم النَّفْر على جملٍ أورق، عليه جُبّة صوف أمام الناس)).

((إن الله لما أراد أن يخلق نفسه خلقَ الخيل وأجراها فعرقتْ، فخلق نفسه منها)).

((لو أحسن أحدكم ظنّه بحجرٍ لنفعه)).

((إن سفينة نوح طافت بالبيتِ سبعاً، وصلّت عند المقام ركعتين)).

((إنّ نفراً من اليهود أتوا الرسولﷺ فقالوا: من يحمل العرش؟ فقال: تحمله اليهود بقرونها، والمجرّة التي في السّماء من عرقهم. قالوا: نشهد إنك لرسول الله)).

((ولدتُ في زمن الملك العادل))؛ أي: كسرى أنوشروان.

((النظر إلى وجه الجميل عبادة)).

---

(١) سفر السعادة. تأليف: مجد الدين الفيروز آبادي. ص٢٦٣. طبعة المنيريّة.

وفي القرن الثاني للهجرة بذل علماء الحديث جهوداً ليست بالقليلة من أجل فضح الكاذبين المفترين على الرسولﷺ، والرّد على كذبهم وافترائهم على الرسول الكريم، لكن تلك الجهود التي بذلت لم تستأصل شأفتهم، وظلوا في حركاتهم التخريبيّة يضللون قسماً من الناس بمفترياتهم، وكان من أشهر من تصدّى لهم من العلماء في القرن المذكور وفضحهم على رؤوس الأشهاد: عامر الشعبي المتوفى سنة ١٠٣ه، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ه، وسفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ه، وعبد الرحمن بن مهدي المتوفى سنة ١٩٨ه.

ولم يسكت خلفاء بني العباس عن الجرائم التي ارتكبها الزنادقة وغيرهم في وضع الأحاديث، فقاموا بقتل عدد منهم، وممّن قُتل (بيان بن سمعان النهدي) قتله خالد بن عبد الله القسري.

وأما (عبد الكريم بن أبي العوجاء) فقد قتل لزندقته في خلافة المهدي العباسي، فكان يدسُّ الأحاديث في كتاب جدّه لأمه حماد بن سلمة،[1] وجيء بهِ إلى أمير البصرة محمد بن سليمان بن علي ليقتله، وهناك أقرَّ بوضع أربعة آلاف حديث يُحرِّم فيها الحلال، ويُحلِّل فيها الحرام!

وممن قُتل في هذا القرن أيضاً: (محمد بن سعيد الأسدي الشامي المصلوب)، فكان يدعو إلى الإلحاد والزندقة، وهو الذي أضاف إلى حديث النبي: ((أنا خاتم الأنبياءِ لا نبيّ بعدي)) تلك الزيادة: (إلّا أن يشاء الله)؛ ليجعل باب النبوة مفتوحاً ولم يغلق.

وقد ذكر الخطيب البغدادي عن أبي داوود السجستاني أنه قال: ((لما جاء

---

(١) بحوث في تاريخ السنة المشرفة. للدكتور أكرم ضياء العمري. ص٢٨.

الرشيد بشاكر رأس الزنادقة ليضرب عنقه، قال: أخبرني لمَ تعلّمون المتعلّم منكم أول ما تعلّمونه الرفض والقدر؟ قال: أما قولنا بالرفض فإنا نريد الطعن على الناقلة، فإذا بطلت الناقلة أوشك أن يبطل المنقول))[1].

ولم تكن الزندقة –وحدها– هي التي قامت بوضع الأحاديث المفتراة، بل هناك من جهلة المسلمين من قام بوضعها أيضاً، ولكلّ واحد منهم سبب في وضعه، وهذه مقتطفات مختصرة من أسباب الوضع[2]:

١– السير وراء الهوى والانتصار للرأي والبدع الضالّة. يقول (عبد الله بن يزيد المقري): ((إن رجلاً من أهل البدع رجع عن بدعته، فجعل يقول: انظروا هذا الحديث عمّن تأخذونه؛ فإنّا كنّا إذا رأينا رأياً جعلناه حديثاً))[3].

٢– ما قام به القُصّاص الذين دخلوا في قلوب كثير من عامة الناس، حين رووا كثيراً من الغرائب بغية جمع الناس حولهم، أو التكسّب مما يقصّونه على الناس، فقد وقفَ قاصّ في مسجد الرصافة، فحدّث عن (أحمد بن حنبل) و(يحيى بن معين) بحضورهما حديثاً طويلاً –نحو عشرين ورقة– فلما فرغَ جمعَ العطايا من الناس، فناداه (ابنُ معين)، فأقبل عليهما، فعرَّفاهُ بنفسيهما، ونفيا تحديثه الحديث، فما كان منه إلّا أن قال: لم أزلْ أسمع أنّ (يحيى بن معين) أحمق ما

---

(١) تاريخ مدينة السلام. تأليف الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت، المعروف بالخطيب البغدادي. ٥/ ٥٠٤–٥٠٥. تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م. دار الغرب الإسلامي – بيروت.

(٢) ينظر كتابنا: الواضح في مصطلح الحديث. ص١٧٨–١٨١ باختصار. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م. دار النفائس – عمان – الأردن.

(٣) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. ص٢١٣.

علمتهُ إلا السّاعة، كأنْ ليس في الدنيا يحيى وأحمد غيركما؛ لقد كتبتُ عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا، ثمّ انصرفَ عنهُما[1].

٣- أحاديث من ينتسبون إلى الزهد والتصوّف:

قام قسم ممن ينتسبون إلى الزهد والتصوّف بوضع أحاديث لصدّ الناس عن المعاصي، وتوجيههم نحو الخير والصلاح، فوضعوا عدداً من الأحاديث في الترغيب والترهيب والفضائل، وقد انتشرت هذه الأحاديث، وقبِلَها كثير من النّاس لوثوقهم بمن يروونها، قال يحيى بن سعيد القطّان:

((ما رأيت الكذب في أحدٍ أكثر منه فيمن ينتسب إلى الخير))[2].

ومن هؤلاء من وضع أحاديث في فضائل السور، كما فعل (نوح بن أبي مريم)، فقد قيل له: من أين لك عن عكرمة عن ابن عبّاس في فضائل القرآن سورةً سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: ((إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه (أبي حنيفة) ومغازي (ابن إسحاق)؛ فوضعتُ هذا الحديث حسبة))[3].

٤- وضع الأحاديث لأغراض خاصّة، وذلك كحبّ التقرب إلى الخلفاء بما يوافق هواهم، وقد فعل ذلك من لا ورع له وبئس ما فعل! ولم ينقل أنّ شيئاً من

---

(١) بحوث في تاريخ السنّة المشرّفة. ص٣٢.

(٢) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. ص٢١١.

(٣) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. ص٢١١-٢١٢. وهذا لا يعني أنّ كل ما ورد في فضائل السور من الأحاديث الموضوعة، فقد ثبت بأحاديث صحيحة فضائل قسم من سور القرآن، مثل: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والتوبة والكهف ويس والدخان والملك والزلزلة والنصر والكافرون والإخلاص والمعوذتين.

هذه الأحاديث وُضعت لخلفاء (بني أميّة)، بل وضعت في العصر العباسي. روى الخطيب البغدادي أنّ (غياث بن إبراهيم) دخل على (المهدي العباسي)، وكان يحب الحمام التي تجيء من البعد، فحدّثه حديثاً رفعه إلى النبيّ ﷺ: ((لا سبق إلا في حافر أو خف أو جناح))، فلمّا خرج (غياث) قال (المهديّ): أشهد أنّ قفاكَ قفا كذّاب على رسول الله. ثمّ أمر بذبح الحمام لتسبُّبِهن في كذب هذا على رسول الله.

فزيادة (أو جناح) هي من وضع (غياث)؛ لأن أصل الحديث: «لا سبق إلّا في نصلٍ أو خفٍّ أو حافر». وهو حديث صحيح رواه عن أبي هريرة الإمام أحمد بن حنبل وأصحاب السنن والحاكم. وغياث هذا طردهُ (هارون الرشيد) عن بابه لحادثة مشابهة[1].

٥- العصبية للإمام:

ممّا لا ريب فيه أن كل إمام من أئمة المسلمين يُجِلُّ الأئمة الآخرين، ولا يقدم على انتقاص واحد منهم، غير أنّ التعصّب المذهبي بلغ بقسم من أتباع المذاهب، حتى صاروا يتراشقون بالتّهم، وكل واحد منهم ينتصر لإمامه، ويغضون من قدر غيره، وينسبون ذلك إلى رسول الله ﷺ، ومن تلك الأحاديث المفتراة:

((يكون في أمتي رجل يقال لهُ محمد بن إدريس، أضرّ على أمتي من إبليس، ويكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة، هو سراج أمتي))!

ومن أمثلة هذا النوع من الأحاديث الموضوعة: ((كما أنا خاتم النبيّين، كذلك عليّ وذريّته يختمون الأوصياء إلى يوم الدين))! فقد اتُّهم بوضعِ هذا

---

(١) تاريخ مدينة السلام. للخطيب البغدادي. ١٤/ ٢٧٧.

الحديث (إبراهيم بن همام).

ومثل هذا أيضاً: ((من لم يقل عليٌّ خير الناس فقد كفر)). وضعهُ (محمد ابن كثير الكوفي).

وفي القرن الثالث وجدوا المجال أمامهم فسيحاً للتنفيس عن أحقادهم، فكتبوا الكتب في مفاخر العجم ومثالب العرب. ومن ذلك أيضاً وضعهم أبواباً في فضل المدن الأعجميّة، حتى وصل بعضهم في مدح تلك المدن أكثر ممّا جعله رسول اللهﷺ في فضل البيت الحرام والمسجد النبوي!

ونجد كثيراً من علماء القرن الثالث من فضحَ افتراءاتهم على رؤوس الأشهاد، من هؤلاء: (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري) المتوفى سنة ٢٧٦ه، فقد ذكر أنّ الحديث ((يدخله الشوب والفساد من جهات ثلاثة، منها: الزنادقة واجتيالهم للإسلام، وتهجينه بدسّ الأحاديث المستشنعة والمستحيلة))[1].

وفي هذا القرن نفسه وقف قسم من خلفاء بني العباس مواقف صارمة من الزنادقة الذين كانوا يضعون الأحاديث، منهم الخليفة المأمون العباسي وقد نهج نهجه الخليفة المعتصم، وكذلك الخليفة المعتضد.

ومع كل الذي حصل، فقد زهت وازدهرت السنة النبوية في القرن الثالث الهجري فظهرت فيه مؤلفات حديثية لم يحفل بمثلها قرن من القرون غيره، قام بتأليفها علماء أعلام، وبخاصة في السنة النبوية. قال الدكتور مصطفى السباعي:

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري. ص٥٢٦. تحقيق: سليم بن عيد الهلالي. الطبعة الثالثة ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م. دار ابن القيم – الرياض. ودار ابن عفان – القاهرة.

((ثم جاء القرن الثالث، فكان أزهى عصور السنة، وأسعدها بأئمة الحديث وتآليفهم العظيمة الخالدة))[1].

وإذا كانت الأحاديث التي قام بوضعها الزنادقة وغيرهم كثيرة كثيرة، فإن اللهﷻ خيّب عمل واضعيها وخذلهم وكشفهم وكشف زيفهم، وقد قيل لعبد الله ابن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة؟ فقال: تعيش لها الجهابذة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2].

أجل. هيّأ الله العلماء الأعلام، فكشفوا تلك الأحاديث الموضوعة، ونفوا بهذا عن هذا الدين انتحال المبطلين، وزيغ الزائغين.

---

(١) السنة النبوية ومكانتها في التشريع الإسلامي. تأليف الدكتور مصطفى السباعي. ص١٧٠. طبع سنة ١٤٣٠هـ-٢٠١٠م. دار الوراق ودار ابن حزم.

(٢) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. تأليف جلال الدين السيوطي. ص٢١١.

الشعوبيّة

بعد أن أكرم الله رسوله محمداًﷺ بالرسالة العظمى -رسالة الإسلام- وانطلق العرب المسلمون ينشرون هذا الدين هنا وهناك في أرجاء العالم، إذ لم يكن غير العرب -آنذاك- قد أسلم وجاهد إلا القلّة القليلة التي لا تكاد تذكر. عند ذاك عرف الناس أن الإسلام والعروبة صارا وجهين لعملة واحدة، فإذا أطلقَ لفظُ (العرب) تبادر إلى الأذهان أن المُراد بهِ (المسلمون).

لقد فتح المسلمون دولتي فارس والروم في عهد الخلفاء الراشدين. وعزّ على الفرس بخاصة أن يزول ملك ساسان ويُهيمنَ العرب على بلادهم، فقامت حركة تدُسُّ الدسائس وتفتري الكذب، وتتبع شتى الحيل لتنال من العرب والإسلام، هذه الحركة تُسمّى بالحركة الشعوبية، وها نذكر باختصار شيئاً عنها:

الشعوبية: حركة فكرية قامت بها جماعات غير عربية، وبخاصة من العنصر الفارسي؛ بغية ضرب التراث العربي الإسلامي بمقوماته اللغوية والإسلامية والحضارية، ومنهم من ألّف الكتب والرسائل في تفضيل العجم على العرب، وألصقوا في كُتُبِ مثالبِ العرب كُلَّ باطل وإفك وبهتان وعيب وعار في العرب. وبلغ من صفاقة وجوههم أنّ من شعرائهم العجم من كان يدخل على بعض الخلفاء فينشده أبياتاً في تفضيل العجم على العرب كما فعل أحدهم حين ألقى قصيدة في ذلك بين يدي (الصاحبِ بن عَبَّاد)، ولم يدعِ الصاحبُ ذلك الشاعرَ يكمل قصيدته، فأسكته، ثم قال: لا أدري أحداً يُفضّل العجم إلا وفيه عرق من المجوسية ينزع إليه[1].

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. تأليف السيد محمود شكري الآلوسي. ١/ ١٦٢-١٦٣. عني بشرحه وتصحيحه: محمد بهجة الأثري. طبع سنة ٢٠٠٩م. دار الكتب العلمية – بيروت.

هكذا تهدف هذه الحركة إلى التقليل من شأن العرب، ولا ترى للعرب أي فضل كان على الشعوب الأخرى، وفي الوقت نفسه، تُشيدُ بالفرس والحضارة الفارسيّة، والعمل على الإساءة للإسلام.

وقد يسأل سائل: من الذي حمل لواء هذا الدور التخريبي ضد العرب والإسلام؟ لقد حملته أصناف عدّة: منهم أناس ظلّوا بعد الفتح الإسلامي على أديانهم القديمة من المجوسية والزرادشتية والمانوية، ومنهم من أسلم في الظاهر فقط، ولم يعلم شيئاً من عقيدة الإسلام وشريعته وأخلاقه، ومنهم من كره العرب؛ لأنهم فتحوا بلاد فارس، وقضوا على ملكهم واستقلال بلادهم. وهكذا الأمر في نصارى الشام ومصر، فقد كرهوا أن يحكمهم العرب، وكانوا يتمنّون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، وإن لم يتسنّ لهم ذلك، فلا أقل من أن يحكمهم أبناء دينهم.

ويستطيع الدارس لحركتي الزندقة والشعوبية أن يجد بينهما صلةً في عمليّة التخريب والإساءة إلى العرب والإسلام: فإذا كانت الزندقة قد عملت عملها في تشويهِ صورة الإسلام بما افترته من تلك التأويلات الباطنية التي لا تتفق مع لغة العرب، فجاءت الشعوبية لتكمّل ذلك الهدم، فقامت بنشر الخلاعة والمجون والإباحية في مجال الأدب العربي، فوق الإساءة إلى العرب والتقليل من شأنهم، وتشويه التاريخ الإسلامي والثقافة العربية.

وقد استعمل الشعوبيون أساليب خداعة ماكرةً في نشر أفكارهم في المجتمع، فكانت حركتهم تتحدث عن الأخوة الإسلامية، وإلغاء الفوارق العنصرية والطبقية. هذا هو المنهج الذي أذاعوه بين الناس في أول الأمر، ولكن لم تمضِ غير فترة ليست بالطويلة، حتى اختلف ذلك المنهج، فصارت دعوتهم

منصبة على تشويه صورة العرب والتحريض عليهم وعلى الإسلام، متخذين من الشعر العربي والقضايا الأدبية وسائل لتحقيق ما تصبو إليه هذه الحركة. وقد أفصح عن هذه المسألة عمرو بن بحر الجاحظ فقال:

((إن عامة من ارتاب بالإسلام، إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام؛ إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف))[1].

وتحدث الجاحظ –مرة أخرى– عن الشعوبية فقال:

((أعلم أنك لم ترَ قوماً قطّ أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشدّ استهلاكاً لعرضه، ولا أطولَ نصباً، ولا أقلّ غُنماً من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم طولُ جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقّد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعُّرُ تلك النيران المضطرمة. ولو عرفوا أخلاق أهل كلّ ملة، وزيَّ أهل كل لغة وعللهم على اختلاف شاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئاتهم، وما علّة كل شيء من ذلك، ولمَ اجتلبوه، ولمَ تكلّفوه لأراحوا أنفسهم، ولخفّتْ مؤونتهم على مَنْ خالطهم))[2].

الشعوبيّون قسمان

انقسمَ الفرس بعد الفتح الإسلامي لبلادهم إلى قسمين، الأول: شعوبيون لا يفرقون بين شعب وشعب آخر من حيث المكانة والرفعة، فهم يذهبون إلى أنّ

---

(١) كتاب الحيوان. تأليف عمرو بن بحر الجاحظ. ٧/ ٢٢٠.

(٢) البيان والتبيين. لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. ٣/ ١٩. وضع حواشيه: موفق شهاب الدين. الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ–٢٠٠٢م. دار الكتب العلمية – بيروت.

الشعوب متساوية كلها في الفضل، فليس لشعبٍ فضل على غيره، فلم يجردوا العرب من الميزات الحسنة التي اتّصفوا بها، ولكنهم جرّدوهم من الفضل على الشعوب الأخرى –وبخاصة الفرس– وأمّا الفرس، فهم شعب[1] وعلى هذا فتكون العلاقة بين الشعب الفارسي المسلم والقبائل العربية المسلمة علاقة تعارف ليس إلا، فلا يكون هناك اندماج سياسي وقومي بينهما، مستدلّين بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[2] وعلى هذا، فهم يذهبون إلى المساواة بين العناصر على أساس الإسلام، ولا يرون للعرب أيّ امتياز كان عليهم.

الثاني: الشعوبية التي غالت في شعوبيّتها، فكان من منهجها تحقير العرب، والإزراء بهم، وتجريدهم من كل الفضائل، ولا ترى لهم فضلاً على غيرهم. ولم يكتفوا بهذا، بل عملوا على تحقير تاريخ العرب، ووصل بهم الأمر في حقدهم على العرب حتى هجَوا (الجمل)؛ لأن العرب تقطع به الصحراء العربية، وهجوا

---

(١) وهذا القول غير مسلّم به، فإن العرب شعب والفرس شعب والروم شعب. وقد احتجّ قسمٌ من الشعوبيّين بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ على أن الشعوب من العجم والقبائل من العرب، وقد قدّم القرآن لفظ (الشعوب) على لفظ (القبائل)، وهذا التقديم يوجب تقديم الفضل. وقد ردّ على هذا القول (ابن قتيبة الدينوري) فبيّن أنّ تقديم الذكر لا يوجب تقديم الفضل؛ فإن اللهﷻ قال: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾؛ فقدّم الجن على الإنس، والإنس أفضل منها. والوجه الآخر: أن العجم ليست بالشعب أولى من العرب، وكل قوم كثروا وانشعبوا، فقد صاروا شعوباً.

ضحى الإسلام تأليف: أحمد أمين ص٤٧ طبع سنة ١٤٢٩هـ–٢٠٠٨م، دار الكتاب العربي – بيروت.

(٢) الحجرات ١٣.

(النخلة) التي تنبت في الجزيرة العربية، و(العصا) التي يتكئ عليها الخطباء في خطبهم، وكذلك ذمُّوا أطعمة العرب وأزياءهم، وبالغوا في الحديث عن إذلال الفرس للعرب عبر التاريخ، وكانوا في حركتهم يعملون على بعث العقائد الفارسية من الزرادشتية والمجوسية والمانوية، وعملوا أيضاً على تحطيم دول الخلافة، وعملت هذه الحركة على أن تكون العرب تابعة للدولة الفارسية كما كانت من قبل.

ويستطيع الدارس للغلاة من الشعوبية أن يرى مضمون دعواتهم هو بغض العرب حتى العمل على قتلهم إذا سنحت لهم الفرصة.

لقد صُوِّبت سهام الغلاة من الشعوبية إلى بني أميّة أول الأمر، وعبّر (نصر بن سيار) والي خراسان في نهاية الدولة الأمويّة خير تعبير عن هؤلاء الغلاة في شعوبيّتهم، فقال:

قومٌ يدينون ديناً ما سمعتُ بهِ ... عن الرسول ولم تنزل به الكُتبُ

فمن يكُن سائلاً عن أصلِ دينهمُ ... فإنّ دينهمُ أن تُقْتَلَ العربُ

عناصر الشعوبية

كان الفرس أول من حمل لواء الحركة الشعوبية، واستطاعت هذه الحركة أن تجند أعداداً من الأقليات والطوائف، وقد اجتمعوا على أمر واحد هو: معاداتهم للعرب والإسلام، والتنديد بقيمِ العرب ومآثرهم، متّخذين أسلوب الدعوة إلى إشاعة الفاحشة والمجون تارة، وأسلوب الزندقة والدعوة إلى الانسلاخ من الإسلام تارة أخرى. يقول الدكتور عرفان عبد الحميد فتاح:

((إذا كان الشعرُ ديوان العرب، انصرفت مكائد الضالّين إلى إفساده بالتكذيب والانتحال؛ لتختلط أخبار القدماء ورواياتهم عنه، فلا يتميّز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وخبير. وإذا كان العربي فخوراً بالجود، معروفًا بالكرم،

فقد دوّن هؤلاء الكتبَ في ذمّ الكرم، والإشادة بالبخل والبخلاء. وإذا كان العربي قد شخّص وجوده في تاريخه، أتى هؤلاء على ما في تاريخ العرب من شذوذ وسلبيّات لا يخلو منها تاريخ البشر؛ فأكثروا من سردها، وأكدوا تواترها، وألّفوا الكتب في مثالب العرب ومآثر العجم))[1].

ويستطرد الدكتور عرفان في حديثه عن الشعوبية فيقول:

((وإذا كان المُسلم يُحرّم أكل المنخنقة وشرب الخمر، تباهى الشعوبي والقرمطي ببيع وأكل لحم القطط والكلاب والحمير. وكان (الأفشين) يستمرئ أكل لحم المنخنقة ويفضّله على المذبوحة، وكان يستهزئ بالاختتان وغيره من السنن الإسلاميّة))[2].

أصناف الشعوبيين ودرجاتهم

لم يكن الشعوبيون صنفًا واحداً، بل كانوا أصنافًا متعددة، تختلف الواحدة منهم عن الأخرى بغاياتها وأهدافها، يقول أحمد أمين:

((إنّ الشعوبيّين كانوا أصنافًا مختلفة: منهم فرس، ومنهم نبط، ومنهم قبط، ومنهم أندلسيّون. وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء صبغة خاصة، فالفرس صبغت صبغةً وطنية تدعو إلى الاستقلال، واتّخذت في بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد، والنبط ظهرت في شكل عصبية للأرض وزراعتها، وتفضيل معيشة الحرث والزرع على الصحراء ومعيشتها، والقبط ثاروا ثورات مختلفة على العرب وأرادوا طردهم من بلادهم، وكان آخر ثورة كبيرة في عهد

---

(١) دراسات في الفكر العربي الإسلامي. للدكتور عرفان عبد الحميد فتاح. ص٣٩٨-٣٩٩.

(٢) دراسات في الفكر العربي الإسلامي ص٣٩٩.

المأمون، فلما هُزموا لجؤوا إلى الكيد بإعمال الحيلة واستعمال المكر))[1].

وكما أن الشعوبية أصناف متعددة، فهم درجات في شعوبيّتهم، فمنهم أناس يرون تسوية العرب بغيرهم ليس إلّا، ومنهم من امتلأت قلوبهم حقداً على العرب، فألصقوا بهم الرذائل، وحقّروا من شأنهم، ومنهم من فرّق بين العرب والإسلام، فقاموا بمهاجمة العرب ولم يسيئوا إلى الإسلام بشيء.

المثقفون من الشعوبية

ولا يظنّن أحد أنّ كل الشعوبيين كانوا من سفهاء الناس ومن الجهلة، فقد كان منهم من المتعلمين والمثقفين، وكان من هؤلاء من وصل إلى مناصب كبيرة في الدولة. أما أصحاب الأثر الكبير في الفكر الشعوبي، فكانوا أولئك الذين عُنوا بالعلم والأدب، ووصل قسم منهم إلى مناصب عالية في الدولة العباسية، وكانوا يمدّون الشعوبيين بجاههم ومالهم، ((فقد ألّفَ عِلانُ الشعوبيّ كتاباً في مثالب العرب؛ فأجازه طاهر بن الحسين عليه بثلاثين ألفًا))[2].

الشعوبيون والخلفاء العباسيون في القرن الثالث

تعصّب الخلفاء العباسيون في القرن الثالث الهجري للإسلام، فوقفوا بشدّة أمام الزندقة، لكنّهم لم يتعصّبوا كثيراً للغة العربية، ولم يحاربوا النزعة العجمية، وقد لقي العرب من العجم شدةً وعنتاً، وإذا علمنا أن كثيراً من الوزراء كانوا من العجم، والدسائس من هنا وهناك تحاك في الليالي الليلاء من أجل إضعاف العرب، وإذا حدث أن ثار العرب في جزيرتهم على الظلم الذي ينالهم، تأتي الجيوش وقادتها من العجم لتنكّل بالثائرين. كانوا يفعلون ذلك انتقاماً من

---

(١) ضحى الإسلام. تأليف: أحمد أمين. ص٤٨.

(٢) ضحى الإسلام. ص٥١.

معركة القادسية التي جعلت أنف العجم في التراب.

وقد بلغ الألم مبلغه لدى الشاعر أبي الطيب المتنبي لما زار شعب بوّان بفارس من ضعف اللغة العربية، فقال:

ملاعبُ جِنّةٍ لو سارَ فيها سليمانُ لســـــارَ بترجمانِ!

ويقول:

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللّسانِ

وقد كثرت الكتب التي يفخرون فيها على العرب. فهذا سعيد بن حميد يؤلف كتابه (انتصاف العجم من العرب) وكتاب (فضل العجم على العرب وافتخارها). وهذا الهيثم بن عديّ وقد جالس أربعة من الخلفاء العباسيّين قد كتب عدداً من الكتب في المثالب، منها كتاب (المثالب الصغير)، وكتاب (المثالب الكبير)، و(أسماء بغايا قريش في الجاهلية)، وكتاب (من تزوّج من الموالي في العرب). وهذا أبو عبيدة مَعْمر بن المثنّى وضع كتابه (لصوص العرب)، وكتاب (أدعياء العرب)، وكتاب (فضائل الفرس)[1].

وأختم الحديث عن الشعوبية بما ذكره ابن قتيبة الدينوري عن لؤم قسم من الشعوبيين، كيف تحلّوا بحلية الأدب، وبرع قسم منهم في الكتابة، فتقرّبوا من السلطان، فقال: ((ومنهم من أقام على خساسة، ينافح عن لؤمه، ويدّعي الشرف للعجم كلها؛ ليكون من ذوي الشرف، ويُظهر بُغض العرب يتنقصها، ويستفرغ مجهوده في مشاتمها، وإظهار مثالبها، وتحريف الكلم في مناقبها، وبلسانها نطق، وبهممها أنف، وبآدابها تسلّح عليها، فإن هو عرف خيراً ستره،

(١) ذكر أكثر هذه الكتب ابن النديم في كتابه (الفهرست).

وإن ظهر حقّره، وإن احتمل التأويلات صرفه إلى أقبحها، وإن سمع سوءًا نشره، وإن لم يسمعه نفرَ عنه، وإن لم يجده تخرّصه، فهو كما قال القائل:

إن يعلموا الخيرَ يخفوهُ، وإن علموا شراً أذاعوا، وإن لم يعلموا بَهَتوا))[1].

(١) فضل العرب والتنبيه على علومها. تأليف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. ص٣٥-٣٦. تقديم وتحقيق: وليد محمود خالص. الطبعة الأولى ١٩٩٨م. منشورات المجمع الثقافي – أبو ظبي – الإمارات.

قضيَّة التقليد

من المؤلم حقاً أن نرى كثيراً من شباب المسلمين قد أصيب بالضحالة الفكرية التي لا تُصاب بها أمة وهي مستقرة النفس، قد اتّجهت إلى غايات عليا! وهذه الضحالة لها ظاهر وباطن، فظاهرها الانقياد الأرعن والتقليد والمحاكاة، وباطنها هزال في العقيدة وضعف في الإيمان، لذلك نهت شريعة الإسلام وحذّرت من التشبّه بغير المسلمين، بل دعت إلى معارضة التقليد الأجنبي معارضةً قويّة، ليظل المسلم محتفظاً بشخصيّته، محافظاً على فكره، متميّزاً بخصائصه، إذ إن التقليد والتبعيّة معناهما: فقدان الشخصيّة، وعبودية الفكر، وأن مفهوم الفكر الإسلامي يربط بين التقدّم والأصالة، لذلك وقف الفكر الإسلامي من قضية التقليد موقفًا حازماً حيث رفضه، بل نبذه نبذ النواة، لأن التقليد يمنع الأصالة. ولقد حذّر القرآن الحكيم من التقليد والمحاكاة من غير دليل وبرهان، كما حذّر -أيضاً- رسول الله ﷺ.

ولقد كانت الأمة الإسلامية إذا اشتدّ بها الكرب، وكثرت المحن، واصطلحت عليها المصائب، لا يشغلها ذلك عن حرصها على كنزها الثمين ومقوماتها وأصالتها، تحفظ ذلك خشية أن تضعف ذاتيتها، أو يصيبها الأذى حتى تنكشف الغاشية، وتزول المحن، وتنفرج الأزمات، لأن الأمة التي استهانت بمقوّماتها وتراثها واحتوتها الأمم الأخرى، تموت وتصبح في ذمّة التاريخ، وفي توابيت المتاحف. وإذا كان الإنجليز والألمان والفرنسيون والأمريكيون يجمعهم جامع من أصول دين واختلاط ثقافة، ومع ذلك فقد صار من العسير التوحيد بينها، لاختلاف طبائع كلٍ منها، فإن اختلاط طبائع المسلمين مع غيرهم أشدّ عسراً وأكثر استحالة، لأن ذلك يعني أن نتخلى عن

قيمنا، وتذوب شخصيّتنا في شخصيّة الغرب!

إن المجتمع الغربي له مقاييسه وأخلاقه وأهدافه، وله مزاجه وظروفه ومشكلاته، وله موقفه المعارض للدّين، لأن الدين في أوروبا لم يستطع أن يُلبّي حاجات الناس. إن ذلك -كلّه- يتباين تبايناً كلياً عن عقيدة المسلم وفكره وأوضاعه وظروفه!

لقد أسّس الغربيّون حضارتهم على الحضارة الإسلامية، حيث نقلوا علوم المسلمين ومعارفهم. وظلّت الحضارة الغربية محتفظةً بعقائدها على ما فيها من وهن وضعف. ويستطيع المسلمون في هذا العصر أن يستفيدوا من الحضارة الغربية، وذلك في اقتباسهم العلوم والتقنية والأساليب والتنظيمات لا اقتباس الآيديولوجيات والمناهج.

لقد بقي المسلمون مدّة طويلة من الزمن على مدى أجيال عدة يعملون على أن يحرروا الفكر الإسلامي من كل ما هو أجنبي ضارّ، فوقفوا مواقف ثابتة دونها ثبات الشمّ الراسيات في هدم الفلسفات الوافدة على الفكر الإسلامي، والنّظريات الماديّة التي روّج لها خصوم الإسلام، ولم يستسلم الفكر الإسلامي لنظرية من هذه النظريات الوافدة، أو فلسفة من الفلسفات الملحدة، بل قاومها مقاومة عنيفة، وتمكّن من دحرها وتخليص الفكر الإسلامي منها.

إنّ على المسلم في هذا العصر أن يُفرِّق بين الأصيل والبديل، وأن يكون موقفه حازماً من الأفكار المادية والدعوات الهدامة التي تعمل على إزاحة الأصيل، وإحلال البديل الزائف مكانه.

إن على العالم الإسلامي أن يستفيد من المدنية الغربية، لأن المدنية لا تختصّ بها أمة دون أخرى، بل هي ملك مشاع بين الأمم كلها. أما ثقافة الغرب، فنحن

المسلمين لا نأخذ بها، لأن الثقافة تعني: فكر الأمة بعقيدتها وشريعتها وقيمها وعاداتها، ونحن المسلمين نملك فكراً يغنينا عن أفكار الأمم كلها، كما أنّ قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا نابعة من عقيدتنا وشريعتنا الإسلامية. ولقد أخذت أمم كثيرة من مدنية الغرب، لكنها لم تأخذ فكرها، كما فعلت اليابان، ومن قبلها أوروبا التي أخذت من المدنية الإسلامية الشيء الكثير، بل قامت مدنيّتها على المدنية الإسلامية، لكن أوروبا لم تأخذ من الثقافة الإسلامية، لأنها تصطدم مع الثقافة الغربية، لذلك لم تأخذ عقيدة التوحيد مثلاً.

وعندما أخذ الغرب الحضارة الإسلامية لم يذب في بوتقة العالم الإسلامي، بل حاول أن يصوغ هذه الحضارة صياغةً تتفق مع عقائده وأفكاره.

ويستطيع المسلمون اليوم أن ينهجوا هذا النهج، فيستفيدوا من حضارة الغرب، من غير أن يذوبوا في بوتقته، بل يظلّ المسلم محافظاً على شخصيته، معتزاً بفكره وثقافته، آخذاً من حضارة الغرب ما ينفع وما يفيد.

لقد نزلت الحضارة الغربية إلى قرار سحيق رهيب. لقد جعلت حياة الناس جحيماً لا يُطاق، وصارت صيحات التحذير من هذه الحضارة الماديّة البراقة الخلابة الخدّاعة، تنبعث من كل مكان، ولا تمضي إلا سنوات حتى نرى الغرب يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويترك المجال لحضارة أخرى، ذلك أنه الآن في مرحلة الانهيار الاجتماعي، وقد أخذ منه التمزق والانحلال كل مأخذ. نجد ذلك واضحاً في أسرة الغرب ومجتمعه وأخلاقه وقيمه وأدبه وفلسفته!

على أن الغرب حتى لو كان الآن متماسكاً اجتماعياً، فلا يجوز لنا أن ننتهج أسلوبه في الحياة، ونلتزم قيمه وعاداته –ولو كانت حضارتهُ المادية قد حلّقت في أجواء عالية من الإبداع والتقدم– ذلك أن منهجنا في الحياة يختلف عن منهجه

الغرب، وتختلف نظرتنا إلى الحياة عن نظرته، ولا يرضى الإسلام لنا أن ننصهر في بوتقة الآخرين، أو أن تحتوينا أيّة حضارة كانت، لأن دورنا في هذه الحياة كبير عظيم، يتمثّل في إقامة مجتمع إنساني، يعيش في جنباته وفي ظلاله الأمن والطمأنينة والسلام. وقد عجزت الآيديولوجيات كلها عن تحقيق ذلك أو شيء منه، وقد أساءت المدنية الغربية إلى العالم كلّ الإساءة. تقول الكاتبة الفرنسيّة (مدام سنث بوانث):

((إني أتهم المدنية الغربية بأنها قصّرت في القيام بالمهمة التي تزعم أنها أُلقيَتْ على عاتقها في الأجيال الأخيرة، أعني المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض، بحيث تؤدي إلى الاتحاد، ويمكن الإنسان أن يُعبّر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين هما: وسيلة حُبِّ الذات، ووسيلة حُبِّ الغير. أما الغرب، فإنه لم يقع اختياره إلا على الوسيلة الأولى –وسيلة الأنانية وحب الذات– وكان اختياره لها جريمة، وكان ذلك سبب ضياعه واضمحلال نفوذه، لأن الوسيلة التي لجأ إليها ملعونة. إنّ الأنانيّة تقضي على الخير، وتلتهم كل برّ. لقد أراد الغرب أن يُوحّد العالم، ولكن تحت سلطانه ومصلحته، والعالم لا يُساس إلا بالعدل وبالحب والإخاء وبردِّ الحقوق إلى أهلها. ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة، واعتمد على القوة وحدها، وعبث بالشرائع الدينية، وخالف تعاليم المسيح عيسى الذي أمر بمحبّة الناس جميعاً. لقد أضاء الشرق دياجير أوروبا بنور تعاليمه، وما هذه العلوم التي يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق، وليس الذي يحجب النور عن الأنظار هو مدنية الشرق القديم، بل الوحشية الغربية ودين القوة وحب الذات والأنانيّة التي يعمل بها الغرب. لقد اختار الغرب الرذيلة على الفضيلة، وإنه بالتجائه إلى الوسائل التي تعرفها الإنسانية قد

أثبت أن مدنيّته فشلت))[1].

ويقول الدكتور (دون لويس روخاس) أستاذ كرسي علم النفس في كلية الطب من جامعة غرناطة:

((انصحوا المبهورين بحضارة الغرب أن يعيدوا النظر فيها. احذروا يا عرب، يا مسلمون أن تخلطوا تصوّراتكم بالحضارة الأوروبيّة. أنتم أهل حضارة عريقة، وهي وإن كانت لم تصل من الناحية المادية إلى مستوى الغرب إلا أنّ لها مقومات لا تملكها حضارة بلداننا الأوروبيّة. إن الإنسان حاول أن يؤلّهَ نفسه بواسطة العلم، والعلم وحده، ولكنه وجدها أحقر وأقلّ مما كان يعتقد، فلا تتخلوا عن نزعاتكم المكتسبة من تصوراتكم الإسلاميّة، ولا تتطلّعوا إلى الحضارة الغربية تطلّعَ المُمجِّدِ لها، المعظّمِ لشأنها، إنها ستبلى. إنّ أخطر ما يواجهكم هو الشعور بالنقص تجاه الحضارة الأوروبيّة، والثقة بكلّ ما يأتي من خارج البلاد))[2].

---

(١) مقدمات المناهج. ص١٩٠.

(٢) الإسلام والحضارة. للأستاذ أنور الجندي. ص١٩٨. طبعة دار الاعتصام – القاهرة. ١٩٧٨م.

قوة الإسلام الذاتيَّة

أدركت الحركات التبشيريّة والاستشراقية إدراكاً تاماً أنّ الإسلام نظام حياة صالح للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان، وأنّ قواعده مبنيّة على أسسٍ علميّة راسخة، وأنّ تقويض بنيانٍ راسخ شامخ ليس بالأمر السهل، وأنّ الأسلحة الفكريّة هي الكفيلة بتقويض هذا البنيان، وممّا قرّرته إحدى الحركات التبشيريّة: ((إنّ المسلمين يدّعون أنّ في الإسلام ما يُلبي كلّ حاجة اجتماعيّة في البشر، فعلينا –نحن المبشّرين– أن نقاوم الإسلام ديناً بالأسلحة الروحيّة))[1].

ويقول المستشرق والمُبشّر (لورانس براون):

((الخطرُ الحقيقيّ كامنٌ في نظام الإسلام، وفي قدرته على التوسّع والاخضاع، وفي حيويّته، إنه الجدارُ الوحيد في وجهِ الاستعمار الأوروبيّ))[2].

ويقول المستشرق (غاردنر):

((إنّ القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا))[3].

ويقول مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٩٥٢م:

((ليست الشيوعية خطراً على أوروبا فيما يبدو لي، إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً عنيفًا هو الخطر الإسلامي، فالمسلمون عالم مستقلّ كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم، ويتمتعون بحضارةٍ تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم

---

(١) التبشير والاستعمار. ص١٩١.

(٢) لماذا أسلمت. تأليف: إبراهيم خليل أحمد. ص٦.

(٣) التبشير والاستعمار. ص٣٦.

جديد، دون حاجة إلى إذابة شخصيّتهم الحضارية والروحية في الحضارة الغربية، وإذا تهيّأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع، انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الغني، وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الروح الغربية، ويقذفون رسالتها إلى متاحف التاريخ. وقد حاولنا -نحن الفرنسيّين- خلال حكمنا الطويل في الجزائر أن نتغلب على الشخصيّة التاريخيّة لشعب هذا البلد، فلم نألُ جهداً في صوغ شخصية غربية له، فكان الإخفاق الكامل نتاج مجهودنا الضخم الكبير. إنّ العالم الإسلاميّ عملاق مقيّد، عملاق لم يكتشف نفسهُ بعدُ اكتشافًا تاماً، فهو حائرٌ وهو قلق، وهو كارهٌ لماضيهِ في عصر الانحطاط، راغب رغبةً يخالطها شيء من الكسل والفوضى في مستقبلٍ أحسن وحريّةٍ أوفر))[1].

ويقول (هانوتو) وزير فرنسا سابقاً:

((لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز المسلمون فيه حدودهُ منتشراً في الآفاق، فهو الدّين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التديّن به، كل ميلٍ إلى اعتناق دينٍ سواه))[2].

إنّ في الإسلام قوة ذاتية تعتمد على ركنين عظيمين، أولهما: أنّ الإسلام منهج حياة كامل، يحقّق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وليس بنظريّة ولا آيديولوجيّة قاصرة. وثانيهما: كراهيّة المسلم للأنظمة كلها، والآيديولوجيّات التي تخالف الإسلام، كراهيّةً منبعثة من العقل والقلب، مخالطةً لدم المسلم

---

(١) جند الله. للأستاذ سعيد حوى. ص١٥-١٦. الطبعة الثانية.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي. للدكتور محمد البهي. ص١٨. مكتبة وهبة.

ولحمه، إذ إنّ هذه الأنظمة لا تقيم حكم الله في الأرض. والمسلم الذي يغمره هذا الشعور يكون عزيزاً دائماً، لا يُذلّ ولا يخضع إلا لله. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) المنافقون ٨.

الغزو الفكريّ وحياتنا المعاصرة

لكل قفل مفتاح، ولكل معضلة حل. وحلُّ معضلتنا ما زال بأيدينا -نحن المسلمين- إذ إن النور الذي عمّ ضياؤه الكرة الأرضية كُلّها وأخرج الناس من ظلمات الجهل والوثنية والأوهام إلى نور العلم والمعرفة والبرهان، لا يزال بأيدينا -أيضاً- ونستطيع أن نُجدّد للإسلام شبابه، وللحضارة ماضيها المشرق، وللإنسانية سعادتها حين نعي واجبنا في هذا الوجود، ونقوم به عن عقيدة وإيمان.

إن الغزو الفكري الذي عمّت ضلالاته، وكثرت اتجاهاته إن لم نقف أمامه وقفةً جادّة، فسوف تكون العاقبة أليمة، والخطبُ جسيماً -ولاتَ ساعة مندم- ذلك أن نصر الله وتأييده يتوقف على مقدار تمسكنا بشريعته، وإن الهزائم التي تجرّعنا غصصها كانت نتائج طبيعية لبعدنا عن شريعة الله رب العالمين، وجلّ جلال القائل: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[1].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[2] إنّ الأمة الإسلامية تعاني اليوم من أزمات سياسية كثيرة، لكنّها -كلها- تتضاءل ويبدو خطبها هيّناً حين ننظر إلى الاضطرابات التي تعاني منها أمتنا الإسلامية في عقيدتها وفكرها وقيمها وموازينها، ذلك أن الأمة حين تصحو من سباتها، وترتفع من كبوتها تُصحّحُ أوضاعها، وتُعوّض عما فقدته، لكن الخسارة -كل الخسارة- حين تذوب

---

(١) الشورى ٣٠.

(٢) الرعد ١١.

شخصية الأمة في غيرها، وتنحرف قيمها وأخلاقها عن جادة الصواب، وتفقد ثقتها بنفسها. عند ذاك تكون الطامة الكبرى، والكارثة العظمى التي لا تبقي ولا تذر!

لقد عارض الفكر الإسلامي النظريات الوافدة في غضون أربعة عشر قرناً، لم يستسلم أو يتأثر بنظرية من تلك النظريات، ووقف أمامها بصمود وصلابة، وقد حمى في هذا نفسه من أيّ تأثير كان.

إن خطر الغزو الفكري أكثر بُعداً مما يتصوره كثير من الناس. إنه يترك الشعب المسلم عبداً تائهاً يستجدي من هنا وهناك فتات الغرب، ويظل في جاهلية جهلاء يُقلّد ويحاكي من غير أن يبتكر ويُبدع، وقد انصهر وذاب في بوتقة الغرب، ففقدَ شخصيّته وخسر نفسه!

إن الشعوب الأصيلة تستمسك بتراثها المفيد، بل تعضّ عليه بالنواجذ، ولا تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

لقد غُلبت الأمة الإسلامية مرّاتٍ كثيرة على أمرها، لكنها بقيت مستمسكة بتراثها، معتزّةً بعقيدتها، وما هي إلا فترة قصيرة حتى جمعت شملها، فعادت لها قوتها. وقد فعلت ذلك لأنها ما ذابت في بوتقة الغزاة المنتصرين، بل بقيت معتزةً بعقيدتها وتراثها. والأمّتان الألمانيّة واليابانيّة غُلبتا على أمرهما، لكنّ كلاً منهما ظلّت معتزةً بتراثها وخصائصها، رغم الهزيمة التي لحقتهما. فلم تقبلا الدخلاء عليهما من غير تمحيص واختبار.

إن في الحياة الغربية جانبين: جانباً مشرقاً وضّاء يتلألأ فيه النور ويشرق فيه الأمل، وجانباً أسود قاتماً يُنذر بالبؤس والشقاء، بل بالموت والدمار، واقتباسنا من الجانب المشرق شيء تفرضه علينا عقيدة الإسلام، ويدعونا إليه رسول

اللهﷺ، لكنّ الجانب السلبيّ من هذه الحضارة التي صار الغرب يئن من ويلاتها ومغباتها، لا تأخذ بها أمة تحرص على حياتها!

لقد ترجم المسلمون في عصر الدولة العباسية عدداً كبيراً من المؤلفات الرومانية واليونانيّة والفارسيّة والهنديّة، لكنهم ظلوا محتفظين بشخصيّتهم الإسلامية، محافظين على قيمهم وتقاليدهم وفكرهم وثقافتهم.

إن العالم الإسلاميّ اليوم بحاجة إلى من يبعث فيه الحياة، ويهزُّه هزاً عنيفًا، ليوقظه من ذلك السبات الذي طال أمده، ليؤدي دوره كما ينبغي في هذه الفترة الحرجة من حياتنا.

إن التخلف الحضاري الذي عايشه المسلمون قبل فترة وجيزة ليس بضربة لازب على هذه الأمة، ولا هو قدر لا يُدفع ولا يُقهر. والمسلمون اليوم يستطيعون أن يقوموا بأكبر دورٍ في هذا العصر، يخدمون به أمتهم، بل الإنسانيّة كلها، حين يتمسك المسلم بعقيدته وشريعته تمسّكاً فعليّاً.

إن استقلال الأمة في تشريعها وتفكيرها وأخلاقها وأهدافها مسألة تتعلق بعقيدة المسلم، والتضحية في سبيل ذلك يقدَّم على كل التضحيات، والمسلم يحرص على ذلك حرصه على حياته. وإن التبعية الفكرية للغرب مروق من الدين، وخروج على عقيدة المسلم. وبذلك يختلف الإسلام عن المناهج الوضعية، وإن الغزو الفكري كان -وسيظل كذلك- يقوم بدور خطير في زعزعة العقيدة من نفوس المسلمين، وقلب أوضاعهم الاجتماعية والأخلاقية ما دام المسلمون في غفلة، وما دامت وسائل الدفاع لم تصل إلى المكان المطلوب، فضلاً عن مهاجمة هذا الغزو الماكر الخدّاع.

لقد ضعفت الحمية الدينية في الغرب ولم يعد لها أي تأثير كان، ووصلت إلى

درجة من اضمحلال القوى حتى أصبحت لا تستيقظ إلا على أصوات الجرائم البشعة، والانحرافات المُروّعة التي تحدث كل يوم في المجتمع الغربي، التي أخذت بتلابيب الغرب، وضيّقت عليه الخناق، لكن هذه الحمية الدينيّة التي شارفت على الموت تدب فيها الحياة، وتقف بكل صلابة حين تسمع بأيّ تجمع إسلامي في العالم يدعو إلى العودة إلى الإسلام، ذلك أن الغرب لا يخشى من شيء خشيته من هذا الدين!

إن الأمة الإسلامية اليوم تعيش في أمن وطمأنينة، متجاهلة المخاطر التي تفاجئها نتيجة هذا الذهول عن خطر الغزو الفكري، وما أتت الأمة الإسلامية المصائب إلا من ذهولها، وعدم حسبانها للمخاطر التي تنجم عن غفلتها. وما أصيبت الأمة الإسلامية بنكبتها الكبرى بسقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ، على أيدي التّتار إلا نتيجة تلك الغفلة. وما أصيب المسلمون بتلك النكبة المفجعة في الأندلس إلا نتيجة تلك الغفلة التي كان يعايشها المسلمون هناك.

إن هذه الغفلة –عينها– هي التي مهدت السبيل لليهود ليحتلوا فلسطين ويستولوا على بيت المقدس، ويرتكبوا جرائم يشيب لهولها الولدان. والخطر الذي يواجهه المسلمون اليوم –خطر الغزو الفكري– أكبر وأخطر من كل التحديات التي تعرّض لها العالم الإسلامي من قبل، ذلك أن تلك التحديات تخلَّصَ منها المسلمون، لكنّ تحدّيات الغزو الفكريّ اليوم، عملت وتعمل على احتواء العالم الإسلامي كله، وتركت آثاراً بعيدة المدى، عميقة الغورِ في نفوس عدد كبير جداً من أبناء العالم الإسلامي وقلوبهم.

إنّ الحملات الصليبيّة –كلّها– لم تترك آثاراً حضارية كبيرة في العالم الإسلاميّ، لكن الغزو الثقافي الغربي، جاء ومعه حضارة ماديّة برّاقة خلابة،

تمكّنت أن تستولي على وسائل التوجيه ومراكز الحكم. ومن هنا جعلت جُلّ اهتمامها في تنشئة جماعات من شبابنا صهرتهم في بوتقتها الخاصة، فتشكّلوا بشكلها، وصاروا خير عون لها في تنفيذ مهمتها، والإتيان على ما تبقّى من حصون العقيدة وقلاع الإيمان من القواعد، ولأنها لا تستطيع أن تتفاهم معهم في كل شأن من شؤون الحياة! وقد عملت -أيضاً- على تربية أجيال من شبابنا تربيةً (لا دينيّة)، فينشأ المسلم، ولا صلة تربطه بحقيقة الإسلام وجوهره وكذلك كان! وقد أثمرت هذه التربية ثمرات نكدة، إذ صار كثير من المسلمين يحمل اتجاهات فكرية كثيرة، تختلف في مبناها ومعناها عن الإسلام وتعاليمه، وتعمل على أن تحلَّ من نفوس المسلمين محل عقيدة الإسلام وشريعته. هذه الجماعات الكثيرة في العالم الإسلامي التي صار أمرها ذا بال، نشأت وهي ضعيفة الرأي، ضحلة التفكير، مولعة بالتقليد، وماذا تريد الصليبية والصهيونية أكثر من هذا؟!

لقد خُدع كثير من المسلمين حين وجدوا حضارةً ماديةً عملاقة بعد تلك الليالي الليلاء التي كان يعيشها العالم الإسلامي. إن هذه الحضارة المادية الخالية من الروح كان يحمل لواءها المستعمرون الذين كانوا يمثلون دور الغالبين الحاكمين، فأعجبوا بها إعجاباً شديداً. وقد حمل المستعمرون مع حضارتهم المادية أخلاقهم الساقطة، وعلاقاتهم الضعيفة، وأوحى هؤلاء إلى المسلمين أن الحضارة الماديّة متلازمة مع الفساد والانحلال، ولم يُفرِّقوا في الحضارة الغربية بين جوانبها المادية والروحية والاجتماعية. فقام الممثلون والممثلات بدورٍ كبير خطير في إفساد المسلمين في أي بلد حلّوا فيه!

إن ثقافتنا الإسلامية خاضت وتخوض معركة حياة أو موت مع الغزوِ

الفكريّ، ولم يترك هذا الغزو الفكري من وسيلة إلّا اتّبعها لتدمير الإسلام والإجهاز عليه، فهو الذي قام بنشر (الوجودية)، ودعا وشجّع حركة ما يُسمّى بـ(تحضير الأرواح)، كما قام بتشجيع (البهائية) و(القاديانيّة) و(الأحمدية).

إنّ في أندونيسيا أكثر من تسعين ملّةً تعملُ ليل نهار باسم التجديد والحضارة والمدنية، لتكسب الناس إلى صفوفها! وتختلف هذه الملل فيما بينها اختلافًا كثيراً، لكنّها -كلّها- قد اصطلحت على محاربة الإسلام، وإبعاد المسلم عن دينه.

فهل يعي المسلمون ذلك؟! وهل يدركون ما يُراد بهم وبإسلامهم؟!

الإسلام أمانةُ الله في أيدينا

الشريعة الإسلامية أمانة الله في أيدي جيلنا الذي تناقلها عن أسلافه، فعليه أن يحافظ على الأمانة، ويؤدي مسؤوليّته تجاهها، بأن يوصلها إلى الجيل القادم وهي بيضاء نقيّة صافية، لم يعلق بها شيء من الأدران والدنس.

لقد صان آباؤنا وأجدادنا هذه الأمانة وحافظوا عليها، وتحمّلوا في سبيلها ما تحمّلوا، وجادوا بكلِّ ما يملكون من أجلها، فقاموا بحمايتها من كل من يريد تدنيسها، وذادوا عنها كلَّ معتدٍ محارب. وهذه الأمانة الكبرى التي أوصلها إلينا آباؤنا وأجدادنا تتعرض الآن لغزوٍ شرس، يريد تدميرها تدميراً كاملاً، إذ قد اصطلحت القوى العالمية على مهاجمتها وحربها بالوسائل كلها. هذه القوى تريد أن تجد لها خيطاً –ولو كخيط العنكبوت– لتتعلق به وتنقضّ على الشريعة، لكن هذه القوى لم تجد لها منفذاً، فصارت تعمل في التشكيك بهذه الشريعة عن طريق الافتراء والدسّ والتشويه!

إنّ المسلم في هذا العصر مدعوّ لأن يفهم دينه فهماً صحيحاً ويجعل من نفسه قرآناً يمشي على رجلين، يمتثل أوامر الله ونواهيه، وهو منشرح الصدر، لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى الله ورسوله، ويسلّم به تسليماً، ثم يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة عن بيّنة وبرهان، مُتّبعاً أسلوب القرآن الحكيم في دعوة الناس إلى الهدى، وهل في الوجود من هدًى أعظم من هدى الإسلام؟!

وهل يُقدّم أحد خيراً أحسن من تقديم الشريعة الإسلاميّة التي تُسعد من أخذ بها، وتنقذه من مشكلات الحياة ومتاعبها، وتمدّه بأسباب القوة والسيادة والظّفر؟!

إن في الشريعة الإسلامية خصائص تفتقدها الشرائع والأنظمة الأخرى. إنها

شريعة زاخرة بكل القيم والمثل والمكارم والفضائل، وقد شهدت مؤتمرات العالم وأعلام القانون بفضلها وعظمتها، كمؤتمر (لاهاي) للقانون المقارن في دورته الأولى سنة ١٩٣٢م، وفي دورته الثانية سنة ١٩٣٧م، ومؤتمر المحامين الدولي المنعقد في مدينة (لاهاي) سنة ١٩٤٨م، ومؤتمر (أسبوع الفقه الإسلامي) الذي عقدته شعبة الحقوق الشرقية من المجتمع الدولي للحقوق المقارنة من جامعة باريس، وغير ذلك كثير.

إن الشريعة الإسلامية منهاج حياة كامل، ونظام مجتمع، ما أحوجنا إلى من يطبّقها، ويقيم حكم الله في العالمين، متَّبعاً المفهوم القرآني في ذلك، لا مفهوم الفلسفة اليونانيّة والمنطق اليونانيّ، وسوف يحاسب الله من يُقصّر في حماية الشريعة، وتبليغها إلى العالمين!

إنّ العالم -كله- اليوم، يخطط الخطط، ويضع المناهج من أجل إطفاء نور الشريعة أو حجب شمسها عن العالم، فهل ينتبه المسلمون إلى ما يُراد بهم وبدينهم؟!

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾.

والحمدُ لله ربِّ العالمين

إبراهيم النعمة

الموصل

المحتـــوى

مقدمة الطبعة الثانية	٥-٦
مقدمة الطبعة الأولى	٧-٩
ماذا عن الغزو الفكري من أهداف الغزو الفكري- خطة جديدة- مجالات الغزو الفكري- التربية والتعليم.	١١-٢٦
التعليم الجامعي	٢٧-٣١
المستشرقون واثارهم في الغزو الفكري خلفية المستشرقين- دوافع الاستشراق واتجاهاته واهدافه- تاريخهم- طلائع المستشرقين المؤثرة- دعم الغرب للحركة الاستشراقية- مؤتمراتهم الدولية- جيش سلاحه القرطاس والقلم- أساليب جمهرة المستشرقين- صورة العرب والمسلمين لدى المستشرقين- حول غزوات رسول الله ﷺ- هدم في الصميم- تحقيق قسم من المستشرقين مخطوطات إسلامية ولغوية- المستشرقون واللغة العربية- تثني على الشخصيات المارقة عن الإسلام وتذم عظماءهم- منهاجهم ليس علمياً- من سموم المستشرقين- اهتمامهم بتراث الجاهلية- نشرهم للأساطير- مفتريات ساقطات- موقفان- نقد المستشرقين- المنصفون من المستشرقين.	٣٣-٦٢
لغتنا العربية أمام الغزو الفكري	٦٣-٦٩
الادب العربي أمام الغزو الفكري	٧١-٧٦
تاريخنا أمام الغزو الفكري	٧٧-٨٠
العلمانية وفصل الدين عن الدولة	٨١-٩٢

مؤامرات وشبهات وردود وإنا له لحافظون – حفظ الله للقران– من أسباب حفظ كتاب الله من التحريف– حفظ الله لكل القرآن وليس لبعضه– المستشرقون والقرآن الكريم– المنصفون من المستشرقين	٩٣–١٠٧
فتنة القرآنيين منهاج القرآنيين– تاريخهم– دور العلماء في مقاومة هذه الدعوة– دعاة القرآنيين في مصر– المستشرقون والسنة النبوية– أدله القرآنيين على إنكار السنة– القرآن يأمرنا أن نأخذ بالسنة– أمثلة على بيان السنة للقران الكريم– إفراد السنة بأحكام– حجتهم داحضة– حكم من ينكر السنة النبوية.	١٠٩–١٢٤
شبهة النهي النبوي عن كتابة الحديث مقدمة– قوة الحافظة عند العرب– مع منكري السنة– عبارات أوقعت باللبس– أحاديث النهي عن كتابة الحديث– دراسة أحاديث النهي عن كتابة الحديث– أحاديث الاذن بالكتابة– من السنة النبوية المدونة– ما كتب من السنة في عهد الصحابة.	١٢٥–١٣٨
الخنجر المسموم (حركة الزنادقة) محاولات الزنادقة الانحراف بعقيدة الإسلام وشريعته– القول بإلهين اثنين– لمحة عن الباطنية– التفسير الباطني للقران الكريم– مؤامرات الباطنية في تأويلاتهم المحكمات من آيات القرآن– الزنادقة والعمل السري– مؤامرات الفرس على الدولة الأموية– الزنادقة في العصر العباسي الأول– دور الزنادقة في وضع الأحاديث– أمثلة من الاحاديث الموضوعة.	١٣٩–١٦١

الشعوبية **الشعوبيون قسمان- عناصر الشعوبية- أصناف الشعوبيين ودرجاتهم- المثقفون من الشعوبية- الشعوبيون والخلفاء العباسيون في القرن الثالث.**	**١٦٣-١٧١**
قضية التقليد	**١٧٣-١٧٧**
قوة الاسلام الذاتية	**١٧٩-١٨١**
الغزو الفكري و حياتنا المعاصرة	**١٨٣-١٨٨**
الإسلام أمانة الله في أيدينا	**١٨٩-١٩٠**